الفصل العاشر

الدين وأهميته للانسان

- مقدمة فى نشأة الدين وتطور مفهومه .
- وظائف الدين الإسلامى للفرد والجماعة.
- الدين فى المنهج الدراسى .
- الصلة الوثيقة بين ما يهدف إليه تعليم الدين الإسلامى وما يهدف إليه التعليم بعـامة .

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

فى نشأة الدين وتطور مفهومه(١)

• • •

لم يكن من المعقول أن يخلق الله الإنسان ويسكنه الأرض التى قدر أزلا أن تكون له مستقراً ومقاماً إلى حين ؛ دون أن يشرع له من الأسس والقواعد وأنماط السلوك والتعامل ما ينظم حياته فيها ويعبد له طريق الاتصال بربه الذى خلقه فسواه وبأخيه الإنسان الذى يقاسمه الوجود والعيش . فلقد كان هذا التشريع ضرورة طبيعية اقتضتها ظروف معيشةهذا الإنسان فى الأرض وكده وسعيه من أجل إخضاع هذه الظروف لخدمته وجلب النفع له ،ومن ناحية أخرى لوصل هذه الخدمة وذلك النفع بما يرضى الخالق الذى قدر فهدى والذى أنشأ الوجود بعد العدم لغايات نبيلة مستهدفة .

ومع هذه الضرورة المستوحاة من طبيعة الخلق وإنشاء الوجود هناك ضرورة أخرى لهذا التشريع نبعت من الحكمة الإلهية التى اقتضت أن ينزل آدم وحواء على الأرض بعد أن تتأجج نار العداوة بينهما وبين إبليس الذى عصى ربه وطرد من رحمته لعدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم ، ومن ثم نصب نفسه بعد طرده وإغوائه أداة الإضلال والانحراف عن شرع الله لآدم وذريته من بعده؛ «قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين(٢)» ، و« قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ؛ ثم لآتينهم من بين أيديهم ،

---

(١) هـذا البحث قاصر على الاديان الألهية التى نزلت من عند الله ، وتلقاها انبياؤه ورسله ليعملوا بها او ليبلغوها مع العمل بها الى من أرسلوا اليهم . فلا يتعدى هذا الى الدين من حيث هو اعتقاد اى اعتقاد بالرهبة قد تكمن في الارواح الشريرة او الطواطم او في اى مظهر من مظاهر الطبيعة ، كما كان الحال في تلك القبائل البدائية التى أشتقت اديانها من طبيعة وجودها في الكون لا من وحى أوحى به الى رسول . ١

(٢) سورة الحجر ، آية ٣٩ .

ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين .»(١).
وإذا فالرءوف بعباده — كما قال هو عن نفسه — لا يترك عباده دون هداية فى وجه هذا الصراع العنيف المنتظر مع ذلك العدو اللدود ، ودون تسليح بالإرشاد المبين فى مقابلة ذلك الإصرار العنيد من الشيطان على استقطاب بنى البشر وضمهم بكل حيلة خبيثة إلى أعوانه وزمرته المرجومين . إن الإنسان بدون هذه الهداية وذلك الإرشاد سوف يضل وينحرف لأنه لا يعلم ما مسلك الضلال والانحراف ، وما طريق الهدى والرشاد ، وليس له بهذا التحدى السافر لإبليس من علم حتى يحذر أحابيله ويجتنب وسوسته وإغراءاته المهلكة .
« ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ؛ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالمين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ، قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين »(٢).

وإذا كان الملائكة الأطهار البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ؛ لا يعلمون شيئاً إلا إذا أعلمهم الله به كما حكى الله عنهم فى قصة خلق آدم حيث قال : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم»(٣) ؛ إذا كانت هذه هى حال الملائكة فيكف بآدم أن يعرف تنظيمات الحياة الدنيا وأحوالها

---

(١) سورة البقرة ، آيات ٣١ ، ٣٢ .
(٢) سورة « ص » ، آيات ٦٩ — ٨٢ .
(٣) سورة الاعراف ، آيات ١٦ ، ١٧ .

فى أرض هبط عليها لأول مرة ولم تسبق له بها معرفة، وكيف يعرف ما غيب عنه وعن ذريته من أمور الآخرة ؟ ! ! .

إنها إذاً ضرورة ملحة تابعة لخلق آدم والظروف التى أحاطت بهذا الخلق أن ينظم الله سبحانه وتعالى له حياته فى الأرض المجهولة التى هبط عليها ، ويمهد له بالأحكام والقوانين والأسس المختلفة ما ييسر له سبيل العيش فيها ، ويصله بربه الذى أنعم عليه بنعمة الوجود . ومن ثم فليس ببعيد ولا بغريب أن نقول إن الدين قديم النشأة قدم آدم عليه السلام .

ولقد عاش آدم فى الأرض التى قدر له أن يهبط عليها ، وكانت له ذرية وتناسل ، واتسعت آفاق الحياة والعمران تدريجاً على ظهر هذه الأرض كلما نمت ذراريه ، وتتابعت أجيالها ، وتشعبت مسالكها ، وتفرقت بها الأهواء والأغراض طبقاً لسنة التطور والارتقاء الوجودى . فكان لا بد مع التطور والتشعب أن تنشأ ظروف لم تكن ، وتختلف أحوال عن ذى قبل ، وتتبدى حاجات كانت فى العدم . ومن شأن هذا كله أن تترتب عليه مترتبات جديدة ، وأن تعرض حاجات ومطالب ما كان يصح أن تقوم على ظروف سبقت ؛ مما جعل أمر الحياة الدنيا والحياة الآخرة عسير الفهم ، صعب القياد ، محتاجاً إلى تنظيم وإيضاح بعد تنظيم وإيضاح ؛ وبخاصة مع وجود هذا الشر الدائم المتمثل فى إبليس ، فلقد طلب من ربه أن يبقى مضلا مغوياً إلى يوم القيامة فأجيب إلى طلبه لحكمة قدرها الله سبحانه وتعالى على عباده من بنى آدم ، بل وصلت الحال بهذا الرجيم اللعين أن يأخذ الأمر مأخذ التحدى فيعلن فيما يحكيه رب العزة فى قرآنه الحكيم قال : « أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا »(١) « وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله »(٢) . ومن غير الله — الذى يعلم من خلق وما خلق — يستطيع أن

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٦٢ .

(٢) سورة النساء ، آيات ١١٨ ، ١١٩ .

يدبر ويشرع لهؤلاء جميعاً . ومن هنا كانت حكمته الإلهية أن اختار من بنى البشر بين الحين والحين وكلما دعت الظروف المتغيرة رسلا مبشرين ومنذرين بتشريعات أنزلها الله سبحانه عليهم وأوحى بها إليهم لتكون منارة الناس فى دنياهم وليجتازوا بها ابتلاءاته إياهم بنجاح ، و «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »(١) .

ولقد شاءت إرادة الخالق سبحانه أن يرسل الرسل بشرائع ذات أصول واحدة وعموميات لا تختلف « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »(٢) . « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون»(٣) . أى إن أممكم جميعاً متحدون فى العقائد وأصول الشرائع التى أرسلتم بها ، متفقون فى الإيمان والتوحيد فى العبادة »(٤) ؛ ذلك لأن الخالق واحد ، والمشرع للجميع لم يتعدد ، والدينونة والخضوع لا يصح إذاً أن تكونا لغير هذا الخالق وذلك المشرع . ومن ثم فالمعبود بحق فى كل الشرائع السماوية هو الله وحده لا شريك له ، ويوم البعث حق على جميع العباد من لدن آدم عليه السلام حتى اليوم الموعود أن يؤمنوا به ، والثواب والعقاب على ماقدم الإنسان وأخر بالجنة والنار مقرران فى كل تشريع ، والإيمان برسل الله وملائكته واجب مفروض فى أى عهد وعصر ، وليس لأحد فى أى زمن من الأزمان أن يستحل مال غيره أو دمه أو عرضه إلا بحقه .

ومن ناحية أخرى هناك تفصيلات تشريعية ومسالك فرعية تضمنتها الأديان السماوية ، وكانت فى أحدها تختلف عنها فى الآخر . ومن ذلك مثلا أسلوب التوبة بقتل النفس فى شريعة موسى عليه السلام كما حكى القرآن الكريم :

---

(١) سورة النساء ، آية ١٦٥ .
(٢) سورة الشورى ، آية ١٣ .
(٣) سورة المؤمنون ، آيات ٥١ ، ٥٢ .
(٤) الفخر الرازى ، التفسير الكبير ، الجزء الثالث ، مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد للنشر القرآن الكريم والكتب الاسلامية : القاهرة ، ص ص ٨١ ، ٨٢ .

« وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فأقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم »(١). ومن ذلك أيضاً تحريم الاشتغال بغير العبادة — ومنه صيد البحر — يوم السبت على بنى إسرائيل كقول الله تعالى : « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »(٢). وذلك على خلاف ما هو معروف فى شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث إن التوبة من الذنوب لها أسلوب آخر قوامه الاستغفار والرجوع إلى الله : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم »(٣). « من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم »(٤) . « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى »(٥). وحيث إن العمل وصيدالبحر حلال فى جميع الأحوال والأيام بخلاف صيد البر الذى يحرم مع الإحرام « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما »(٦)، كذلك حرم الله على بنى إسرائيل أكل الحيوانات ذات الأظفار لحماً وشحماً وكل شىء إلا البقر والغنم فقد حرم عليهم شحومهما الخالصة وشحوم الكلى ؛ يقول الله تعالى فى هذا الصدد : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم(٧) وليس شىء من هذا محرما فى الشريعة الإسلامية ، إذ يقول الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : « قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه

---

(١) سورة البقرة ، آية ٥٤ .
(٢) سورة الأعراف ، آية ١٦٣ .
(٣) سورة المائدة ، آية ٣٩ .
(٤) سورة الأنعام ، آية ٥٤ .
(٥) سورة طه ، آية ٨٢ .
(٦) سورة المائدة ، آية ٩٦ .
(٧) سورة الأنعام ، آية ١٤٦ .

إلا أن يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به(١). بل قد أباح الله هذه المحرمات للمضطر « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم (٢)». ومن ذلك أيضاً قطع موضع النجاسة وفرض خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وصرف ربع المال للزكاة فى شريعة موسى عليه السلام : والأمر يختلف عنه فى شريعتنا المحمدية والشرائع الأخرى .

ولقد كانت تحية الملوك والعظماء فى عهد يعقوب ويوسف عليهما السلام بالسجود ، ولم يكن ذلك محرماً فى شريعتهما ؛ ومن ثم سجد يعقوب لأخيه « عيسو » حين تلاقيا بعد تفرق(٣). وحكى القرآن الكريم عن يعقوب وزوجه وأولاده الأحد عشر حين : « دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا »(٤). أما فى الشريعة المحمدية فالسجود لغير الله محرم . فى فيض القدير . وكانت تحية من قبلنا السجود لمن يلقونه فحرم علينا السجود لغير الله ، وأعطينا مكانه السلام »(٥). وعن عبد الله بن أبى أوفى قال : « لما قدم معاذ من الشام سجد للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؟ قال : أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم ، فوددت فى نفسى أن أفعل ذلك لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تفعلوا ، فإنى لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . . . »(٦).

---

(١) سورة الانعام ، آية ١٤٥ .

(٢) احمد مصطفى المراغى ، تفسير المراغى ، الجزء الثالث عشر ، شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبى واولاده بمصر ، ١٩٧١ ، ص ٤٣ .

(٣) سورة يوسف ، آيات ٩٩ — ١٠٠ .

(٤) محمد المدعو بعبد الرءوف المناوى ، فيض القدير : شرح الجامع الصغير ، الجزء الرابع ، المكتبة التجارية الكبرى : القاهرة (د.ت) ص ١٥٠ .

(٥) محمد بن على بن محمد الشوكانى ، نيل الأوطار : شرح منتقى الاخبار من احاديث الاخيار ، الجزء السادس ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى واولاده : مصر ، (د.ت) ، ص ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

وفى شرع يعقوب عليه السلام كان جزاء السارق أن يسترق بسرقته كما حكى القرآن الكريم فى قصة إخوة يوسف حين اتهموا بسرقة صواع الملك ، ثم انتهى الأمر بأخذ يوسف عليه السلام أخاه «بنيامين» فى سرقة هذا الصواع ادعاءً . قال الله تعالى . « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله »(١). ونحن نعلم أن السارق فى الإسلام تقطع يده بالشروط المفصلة فى حد القطع ، قال الله تعالى . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم »(٢).

ولقد اقتضت حكمته تعالى أن يعذب أقواماً كذبوا رسلهم بالإهلاك فى الدنيا على حين أنه لم يعذب ذلك العذاب أقواماً آخرين . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى . « وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ، فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٣). ويقول الله تعالى فيمن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم من قومه حين قالوا . « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر

---

(١) سورة يوسف ، آيات ٧٠ — ٧٦ .
(٢) سورة المائدة ، آية ٣٨ .
(٣) سورة العنكبوت ، آيات ٣٨ — ٤٠ .

علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »(١). « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »(٢).

وهكذا اختلفت الشرائع التى شرعها الله لعباده من رسول الله إلى رسول فى تفصيلاتها وتفريعاتها . وصدق الله حيث يقول . « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة »(٣). « أى ولو شاء الله تعالى أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد تسيرون عليه وتعملون به بأن يخلقكم على استعداد واحد وأخلاق واحدة وطور واحد فى معيشتكم ، فتصلح لكم شريعة واحدة فى كل الأزمان، فتكونون كسائر أنواع المخلوقات التى يقف استعدادها عند مستوى معين كالطير والنمل ؛ لفعل ذلك إذ هو داخل تحت قدرته تعالى لا يستعصى عليه »(٤).

ولعل الأسباب الداعية إلى مغايرة الشرائع فى تفريعاتها ترجع إلى ما يلى .

أولا . إن ظروف الناس تختلف على مر العصور ، وتتباين أحوالهم ونظم معيشتهم والعادات التى يعتادونها ؛ مما يقتضى هذه المغايرة فى التدابير والنظم التى تحكم تعامل الناس بعضهم مع بعض ، وتعاملهم مع ربهم ، مع بقاء الأصول الدينية من عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان باليوم الآخر وغير ذلك مما أشرنا إليه سابقاً ؛ بقائها موحدة بين جميع الشرائع ؛ لأنها ترجع فى فاعليتها إلى عظمة الخالق البارىء المصور ، وإلى التنظيم المحكم الذى نظم به سبحانه أمر الدنيا والآخرة بعامة من أجل الصالح العام لكل البشر بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان وظروف العالم الخاصة . ولعل فى قوله تعالى«ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها»(٥)، إشارة واضحة

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٣٢ .
(٢) سورة الأنفال ، آية ٣٣ .
(٣) سورة المائدة ، آية ٤٨ .
(٤) أحمد مصطفى المراغى ، مرجع سابق ، الجزء السابع ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٥ .
(٥) سورة البقرة ، آية ١٠٦ .

إلى هذا المبدأ، فهو تعالى يراعى ظروف الناس وأحوالهم المعيشية فيما ينزل من آيات ويشرع من أحكام، فينسخ ما لا يتوافق مع هذه الظروف، ويأتى بما هو خير من التدبيرات والأحكام التى تسايرها وتنسجم معها. وإذا توسعنا فى معنى التشريعات الفرعية ومطابقتها لأحوال الناس ونزلنا إلى المشرع البشرى الذى اجتهد فيما لا نص فيه – حيث ذلك جائز فى الإسلام – وجدنا الشافعى مثلا – وهو حجة فى الفقه الإسلامى – يضع من الأسس والأحكام التشريعية باجتهاده حين كان بالعراق ما كان يسمى بالمذهب القديم، ثم عدل عنه فيما بعد حين انتقل إلى مصر وأنشأ أحكاماً مخالفة فيما سمى بالمذهب الجديد. ولقد كان أبو حنيفة – وهو ذو شأن عظيم وله مذهب فقهى منتشر – يأخذ فى حسابه حين يجتهد ببعض التشريعات ما درج عليه الناس وألفوه، ويعلل ذلك بعموم البلوى قاصداً شيوع الاستخدام واستحكام العادة بين الناس.

ثانياً: إن الجنس البشرى فى تطوره عبر العصور يتدرج نضجاً فى العقل والتفكير، واكتمالا فى الحكمة والمعرفة؛ شأنه فى ذلك شأن الإنسان الفرد يبدأ طفلا فى العقل والمعرفة ثم يكبر عقلا ومعرفة بالتدريج، وينضج تفكيراً وحكمة كلما تخطاه الزمن بخطواته. ومن القواعد المعروفة أن كل مخلوق له بداية وله نهاية، وفيما بين البداية والنهاية هنالك أطوار متدرجة فى الترقى، وكما يصدق ذلك على الفرد يصدق على الجنس البشرى بعموميته. وإذا كان الأمر كذلك فمن غير المشكوك فيه أن تتنوع التشريعات والأحكام التفصيلية فى الأديان طبقاً لمستوى النضوج العقلى والاكتمال الفكرى والحضارى.

ومن ثم كانت معجزات الرسل السابقة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حسية بمعنى أنها تخاطب الحواس، وتنحو نحو التأثير المادى. وتبعد عن دائرة المجردات، وذلك ما يشير إليه علم النفس فى دراسة الإنسان وتطبيقه التربية السليمة فى تعليمه. فقد أثبت علم النفس أن الطفل يبدأ بمقدرة عقلية محدودة، ثم تنمو مقدرته العقلية بازدياد عمره الزمنى على تفاوت بين الأشخاص،

وهو مع المقدرة العقلية المحدودة لا يستطيع التعامل إلا مع المحسوسات ، ولا يفهم إلا المواقف المرتبطة بما يحس به برؤية أو تذوق أو شم أو ما إلى ذلك. ثم يتدرج مع ارتقاء مقدرته العقلية قرباً من فهم المجردات والمنطق القائم على الكلمة ليس غير .

ولقد أخذ علماء التربية هذا المعنى فى الاعتبار عند ما أشاروا بأن طفل المرحلة الابتدائية بعامة وكذلك الكبير المتأخر عقلياً ينبغى أن تقدم لهما المعارف والمعلومات فى صور حسية حتى يفهماها ، وأن تكون مواقف التدريس لهما مليئة بالوسائل التعليمية التى تقربها له من عالم المحسوسات(١).

ومن ناحية أخرى كانت هذه المعجزات السابقة حسية مادية لأنه أريد أن تكون قاصرة على المعنيين بها من منطق أن رسالات من ظهرت على أيديهم ليست خاتمة ولا شاملة ؛ فناسب أن تكون على هذا النمط الذى لا يتعدى تأثيره إلى غير من أرسل إليهم ممن قد لا يتأثرون بما تأثر به غيرهم من حيث إنهم لا يهتمون بما اهتموا به أو لا يعنيهم هذا اللون من الآيات كما عناهم .

ومن هنا كانت معجزة موسى عليه السلام كما نعرف فى مثل قوله تعالى : « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين»(٢). وغير ذلك مما هو منبث فى آيات كثيرة من القرآن الكريم . وكانت معجزة صالح عليه السلام أن أخرج بإذن ربه الناقة من الصخر لها شرب ولقومه شرب يوم معلوم ، وقال لهم : « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب»(٣). وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ونحو ذلك من المعجزات المحسوسة التى ذكرها الله تبارك وتعالى فى قوله الكريم : « ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى أنى قد جئتكم بآية من ربكم أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه

---

(١) راجع في هذا الكتاب ص ص ٢١٥ — ٢١٩ .
(٢) سورة الشعراء ، آيات ٣٢ — ٣٣ .
(٣) سورة هود ، آية ٦٤ .

فيكون طيراً بإذن الله، وإبرىء الأكمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم؛ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»(١). وفى قوله تعالى فى موضع آخر: «إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين»(٢). وكانت معجزة إبراهيم سلامته من النار المظيمة اللهب التى ألقى فيها كما حكى القرآن الكريم: «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها العالمين»(٣).

وهكذا كانت معجزات الرسل السابقين من ذلك الصنف اللصيق بأدوات الحس فى الإنسان، والمؤثر عليه تأثيراً مادياً يليق بمستويات عقلية محدودة لم تبلغ بعد النضج الذى يؤهلها للارتفاع إلى مستوى المجردات فى الفهم والخطاب.

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كما أخبرنا القرآن الكريم قد أرسل خاتماً للرسل والأنبياء: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين»(٤). وكانت رسالته شاملة جميع الخلائق لا فرق بين حضر ومدر ولا شرق وغرب: «وما أرسلناك إلا كافة للناس»(٥)، «قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً(٦)»، وذلك بعد أن نضجت البشرية عقلا وارتفع مستوى تفكيرها ارتفاعاً كبيراً هو نهاية المطاف فى هذا الصدد، ولا أدل على ذلك

---

(١) سورة آل عمران، آية ٤٩.
(٢) سورة المائدة، آيات ١١٢ — ١١٥.
(٣) سورة الأنبياء، آيات ٦٨ — ٧١.
(٤) سورة الأحزاب، آية ٤٠.
(٥) سورة سبأ، آية ٢٨.
(٦) سورة الأعراف، آية ١٥٨.

مما بلغه الإنسان من العلم الذى قطع شوطاً كبيراً فى التطور منذ بعثته صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن من الفيض الهائل والعمق الكبير والضرب فى كل مجال .ومن ثم ناسب أن تكون معجزته الكبرى والأساسية من نوع آخر يختلف عن تلك المعجزات السابقة مما يتلاءم مع ذلك الارتقاء الفكرى الذى سيدوم ويتطور ارتفاعاً وعمقاً وشمولا إلى يوم القيامة ؛إنها « القرآن » البعيد فى إعجازه عن المحسوس الوقتى الأثر ،المحدود بأقوام بأعينهم ،المركز على مخاطبة العقول والعقول فقط(١) ، وهى قسمة مشتركة بين بنى البشر بلا استثناء حتى جعلت خاصة مميزة للإنسان وأخذت فى تعريفه فقيل : الإنسان حيوان عاقل أو مفكر ، ولن يختلف مفهوم الإنسان هذا إلى يوم يبعثون.

وإذاً فمعجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذ فى اعتبارها أمران:

الأول : أن من أرسل إليهم هم ذروة البشر فى التطور الفكرى ؛ أولئك الذين جازوا مرحلة الطفولة فى هذا الصدد ووصلوا فيه إلى القمة ، فلم يعودوا فى فى حاجة إلى معجزة محسوسة تؤثر تأثيرها المادى على النفوس،إذ قد وصلوا إلى مستوى فهم المجردات والتأثر من طريق المنطق والكلمة المعقولة والاقتناع بعيداً عن الهوى والانفعالات التى تستثار عادة بخوارق العادات المادية ،ولذلك تحدثنا القرآن الكريم أن الله الذى خلق الناس ويعلم من خلق يصف من لم يهتد بهدى القرآن ولم يتبع رسوله بالبعد عن اتباع العقل والارتماء فى أحضان الهوى ، وفى ذلك يقول تعالى : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »(٢) ، ويقول مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : « ولا تطع من

---

(١) لا ينفى هذا ان كان للنبى صلى الله عليه وسلم معجزات حسية كنبع الماء من بين أصابعه ،وتسبيح الحصى بين يديه ، وحنين الجذع ، وغير ذلك . ولكن هذه المعجزات لم تكن اساسية فى اثبات رسالته صلى الله عليه وسلم ، وانما كانت عرضية أتت بها الظروف الطارئة ، واقتضتها بعض الأحوال الوقتية .

(٢) سورة الفرقان ، آيات ٤٣ ، ٤٤ .

من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »(١)، ويقول أيضاً : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه »(٢). وحين يدعو الضال إلى الرجوع عن ضلاله يخاطب عقله وينكر عليه تشبثه بالآيات المحسوسة والخوارق المادية فيقول جل وعلا : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون»(٣)، « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا »(٤)، « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ »(٥)، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تنكر على المعاندين والمعارضين والعاصين تطليقهم للفكر وانحرافهم عن منطق العقول . بل إنه فى مواطن كثيرة من الكتاب الكريم جعل الآيات التى ينبغى أن تكون لهم وأن يطلبوها ؛ من جنس ما تخاطب به العقول. فقال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٦) وقال : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »(٧)، وقال أيضاً

---

(١) سورة الكهف ، آية ٢٨ .
(٢) سورة الكهف ، آية ٥٧ .
(٣) سورة يونس ، آية ١٠١ .
(٤) سورة الاسراء ، آيات ٩٠ — ٩٤ .
(٥) سورة المؤمنون ، آيات ٨٤ — ٨٩ .
(٦) سورة آل عمران ، آية ١٩٠ .
(٧) سورة العنكبوت ، آيات ٥٠ ، ٥١ .

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »(١) . . . وكثير غير هذه الآيات .

الثانى : أن من أرسل إليهم — وهم آخر من يرسل إليهم ، وسيمتد بهم وبذراريهم الزمن إلى يوم القيامة — سوف لا يقفون فى تطورهم العقلى عند الحد الذى كانوا عليه فى بداية البعثة المحمدية ، بل سيجتازون هذا المستوى إلى مستويات أخرى أرقى وأفضل وأعمق ، وسيخوضون فى بحار من العلم والمعرفة تتسع آفاقها وتتنوع مناحيها ويعظم فيضانها . وخير دليل على ذلك ما نشاهده اليوم من علم زاخر وفكر جبار وصل بأصحابه عبر الآفاق إلى غير الأرض من الكواكب كالقمر والزهرة وغيرهما ، واخترق بهم الفضاء ليعرفوا عن هذه العوالم وما يحيط بها ما لم يكن يصدقه عقل لولا أنه وقع . ومن يدرى ماذا سيأتى به الغد وبعد الغد إلى يوم تقوم الساعة ؟ ! ! ! .

وإذا فليس من المعقول ولا المقبول أن تكون معجزة خاتم الأنبياء ومن أرسل إلى الناس كافة فى زمانه وبعد زمانه حتى يوم القيامة — وهم على هذا النمط الذى وضحناه من التطور الفكرى والعلمى — من جنس ما جاء به الرسل قبله معجزات حسية ينتهى مفعولها وتأثيرها بانتهاء من تأثر بها وأحس فاعليتها وإلا كان من الممكن أن يدعى اللاحقون أن ما حدث مما لم يحسوه هم كان خيالا ، وأن لهم مندوحة فى عدم التصديق به لأنه لم يقع أمامهم ولم يتأثروا به ، وقد يكون من تأليف الرواة لسبب أو لآخر . وإذا كنا اليوم نسمع من بعض

(١) سورة الروم ، آيات ٢٠ — ٢٥ .

المسلمين قولا عجباً هو عدم الاعتراف بالأحاديث النبوية أصلا من أصول التشريع لأن الزمن قد عفى عليها ، ولأن ألسنة الرواة قد لاكتها — وكثير منهم الكاذبون على حد قولهم — إذا كنا نسمع اليوم هذا العجب العجاب فكيف بنا نسمع لو أن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم كانت من ذلك النوع الوقتى المرهون بظروف خاصة ، والذى يحس به من وقع أمامهم ولا يتعداه أثراً إلى ما يأتى بعده من مثل هؤلاء الذين يتلاعب بعقولهم الشيطان ! ! .

ولكن من المعقول والمقبول أن تكون معجزة هذا الرسول الأكرم هى القرآن ؛ ذلك الكتاب الذى يخاطب العقول حيث العقول لن تنزع من بنى البشر حتى نهاية الدنيا ، والذى يرتفع بلفظه ومعناه عن تلك المحسوسات الوقتية الأثر إلى مستوى سام وراق لا يتصور أن ينفك عنه مهما تعاقبت الأجيال وتوالت الدهور ؛ « ذلك الكتاب لا ريب فيه »(١) . « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »(٢) . « أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض »(٣) . ولقد جاءت المعجزة بهذه الصورة لتظل معجزة لمن أرسل إليهم — وهم جميع شعوب الدنيا إلى يوم البعث — مهما ارتفعت مداركهم وطغا طوفان علمهم ، وجاءوا بالجديد من بين ثنايا تجاربهم ودراساتهم وتقنياتهم .

ولست أريد أن أدعى مع من يدعى أن القرآن الكريم من منطق قوله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء »(٤) . قد جمع نظريات العلوم وقوانين المعرفة البشرية فى مجالات الطب والهندسة والفلك والرياضة وغير ذلك ؛ لأن القرآن لم يكن أبداً ولن يكون أبداً على غرار تلك الكتب التى تؤلف فى هذه المجالات مبيناً لقوانينها ونظرياتها والحقائق المكتنفة والمستكشفة فيها ، وإلا لكان مثلها عادياً لا إعجاز فيه ، بل لكان داعية إلى تعطيل الفكر ، ووقف حركة

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢ .
(٢) سورة فصلت ، آية ٤٢ .
(٣) سورة الفرقان ، آية ٦ .
(٤) سورة الانعام ، آية ٣٨ .

الكشف والاختراع وتطور العلمى ومتابعة الدراسة والبحث والتقصى والتجربة ، ولصدق عليه افتراء المفترين من أنه هو والإسلام الذى يدعو إليه مثبط لهمم من يؤمن به من العلماء، مؤكد لعقول الباحثين إن هم تابعوه ، قاطع على من يفكر تفكيره ، وعلى من يريد أن يعلم علمه ؛ ذلك لأنه إذا كان من عند الله حقاً — وهو كذلك لا شك — فإن ما جاء به من نظريات وقوانين ينبغى ألا يتطرق إليها الشك ولا يمكن أن تغيرها عقول البشر القاصرة ، ومن ثم فليس لك بعدها أيها الإنسان طلب فى استزادة أو منفذ إلى شىء جديد ، فقف إذاً خاشعاً خاضعاً مؤمناً منفذاً مطبقاً ، وليس لك إلا أن تكون أداة لا غير ، وليس لعقلك أن يسبح وراء نظريات أخرى أو قوانين معدلة وإلا كفرت بربك وضل بك الطريق . وهنا يحق لمتسائل أن يسأل : ولماذا خلق الله العقول فى البشر ؟ وأى وظيفة لها تكون وقد قطع عليها الطريق وسلب منها قوة التفكير ؟ ! ! ! .

والذى نعتقده أن القرآن الكريم على عكس ذلك تماماً ؛ فهو يحيى جهود العلماء فى سبيل العلم ، ويدعو إلى استدامة الدراسة والبحث من أجل الوصول إلى الجديد الذى يثبت قدرته وعظيم شأنه تعالى بما يؤكد أنه الخالق الأوحد المعبود بحق ، وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(١) . خير شاهد على ذلك ؛ إذ لا تشير هذه الآية بالقطع إلى معجزات خارقة للعادة يريهم الله إياها فى الآفاق وفى أنفسهم : لأن زمن المعجزات قد انقطع بموت النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما سيكون ذلك بشىء آخر فى مقدور الإنسان وفى مستوى ما يدرك ويعلم وهو البحث والدراسة والعلم بمنطيها للوصول إلى مستكشاف لم تكن ، واختراعات لم يتوصل إليها السابقون ، وقوانين تحكم مظاهر الطبيعة التى تحيط به مما عجز فى حين من الأحيان أن يتوصل إليها . أليس فى هذا دعوة ملحة إلى دوام العمل الفكرى

---

(١) سورة فصلت ، آية ٥٣ .

وعدم الانقطاع عن الدراسة والبحث ؟ ! وإذا آمنا أن القرآن باق معجزة إلى يوم القيامة فلن تنقطع دعوة هذه الآية إلى ما تدعو إليه إلا بانقطاع الحياة على وجه الأرض . وأمام هذا المعنى لن يكون هناك حق لقول من يقول : إن حقائق العلم اليوم ثابتة ، ومن ثم فلا جديد لمن يريد الجديد ؛ لأنا نقول : إذا كان الأمر كذلك فتلك دعوة صريحة إلى توقف دولاب العلم والعلماء عن الدوران ، وما قال بذلك أحد. يقول العقاد عن رأى الفيلسوف البروفسور هـ . د . لويس "Lewis" « إن الحقائق التى يقررها العلم والفكر لا تعدو أن تكون حقائق نسبية بالإضافة إلى غيرها كما نقول فى مصطلحات المنطق العربية . وبعض هذه الحقائق مقياس لبعض ، ولكنها جميعاً لا تثبت للذهن بحال من الأحوال بغير القياس إلى حقيقة مطلقة أبدية تحيط بها جميعاً : وهى الحقيقة الإلهية » . ويضيف العقاد « وليس البروفسور « لويس » ممن يستضعفون البراهين الفكرية التى يستعان بها على إثبات وجود تلك الحقيقة ، وليس هو كذلك ممن يتمنعون بها ويحسبونها يقيناً قاطعاً يحسن السكوت عليه ، ولكنه يرى أن هذه البراهين هى واجب العقل الذى لا يجوز له أن يتخلى عنه فى سعيه إلى هذه الحقيقة وإلى كل حقيقة »(١) ، على أن من العلماء المشهود لهم فى السبق العلمى أمثال « مصطفى نظيف » من قالها صريحة بأن « العلم يؤلفه الذهن أو العقل من مشاهدة ظواهر العالم المحسوسة ودراستها ؛ وهو متغير ، فبينما نرى النظرية العلمية صحيحة فى وقت من الأوقات لأنها توافق معلومات ذلك الوقت إذ بها قد عدلت أو نبذت واستبدلت بها نظريات غيرها تكون أصلح وأكثر ملاءمة للمعلومات المعروفة فى وقت آخر ، وتاريخ العلم مملوء بالأمثلة الدالة على ذلك . إذن النظريات والآراء والقواعد والقوانين

---

(١) عباس محمود العقاد ، **الله : كتاب فى نشأة العقيدة الالهية** ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف : القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ص ٨ — ٩ .

العلمية ليست ثابتة مطلقة يقينية ، إنما هى متغيرة إضافية »(١). وإن صح فى المنطق المتساهل أن ندعى ثبوت الحقائق العلمية فليس ذلك إلا ثبوتاً نسبياً مرهوناً بالظروف والأحوال والحوادث التى أدت إليها وساعدت على الكشف عنها ؛ إذ الواقع الملموس ينفى الثبوت المعلق لتلك الحقائق العلمية ، فالذرة يوماً كانت أصغر شىء فى الوجود ، وهى إذاً لا تنفتت ، ثم جاء العلم المتطور بما ينقض ذلك وأثبت حقيقة علمية مضادة هى أن الذرة تنفتت إلى ألكترونات وبروتونات ، فلم تعد الذرة إذاً أصغر ما فى الوجود ، وما زال العلم يجرى وراء البحث عن طبيعة هذه الألكترونات والبروتونات وهل هى نهاية المطاف فى التفتيت أم أنها قابلة لتفتيت آخر أو لأن تصير شيئاً آخر ؟ ولقد قالت هندسة « إقليدس » بأن الخطين المتوازيين لا يلتقيان بناء على تصور معين فجاءت هندسة اللاإقليديين تضاد هذه المقولة بمقولة أخرى هى أن الخطين المتوازيين يلتقيان بناء على تصور آخر . وهناك الكثير من مستكشفات العلم الحديث ما يناقض ما سبق به الكشف . وصدق الله إذ يقول : « وفوق ذى علم عليم »(٢).

والذى لا أشك فيه مطلقاً أن القرآن الكريم كتاب كل ما فيه يستحث العقل البشرى أن يتحرك دائماً بالتفكير وألا يقف عند حد محدود فيما يستنبط ويستكشف ؛ فدعا إلى دوام النظر والتأمل والبحث والدراسة فى السموات والأرض بما تشتملان عليه من مخلوقات : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »(٣) ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »(٤). وأشار إشارات

---

(١) ابراهيم بسيونى عميرة وفتحى الديب ، **تدريس العلوم والتربية العلمية** ، الطبعة السادسة ، دار المعارف : القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٢ ، نقلا من مصطفى نظيف ، **علم الطبيعة : نشوءة ورقية وتقدمه الحديث** ، مطبعة مصر : القاهرة ، ١٩٢٧ .

(٢) سورة يوسف ، آية ٧٦ .

(٣) سورة يونس ، آية ١٠١ .

(٤) سورة الغاشية ، آيات ١٧ — ٢٠ .

خفية تستنهض الهمة العلمية ألا تتوقف عن البحث والدراسة ، ومن ذلك أنه حكم على علم الإنسان بالقلة القليلة مهما علا وفاض وأعجب أهله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) ، ومعنى ذلك بوضوح هو الدعوة إلى المثابرة العلمية النشطة طلباً للمزيد والجديد ؛ حيث لن يبلغ مجد مهما كانت درجة اجتهاده العلمي إلى شاطىء الاستراحة الأبدية للفكر باستنزاف حقائق العلم والوقوف على نهاياته . ومنه أيضاً ما ذكره تعالى من نظام الأفلاك وأنها ذات مسارات محددة ليكون من وراء ذلك حساب للزمن وتأملات علمية فى مجال الفلك ، فيقول تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »(٢) . ويقول سبحانه : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »(٣) ، ويقول أيضاً : « فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسبانا ؛ ذلك تقدير العزيز العليم» ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر»(٤) . وأمثال هذه الآيات كثيرة وكلها — كما هو واضح — جاذبة لفكر الإنسان أن يعمل ويدرس من أجل الوقوف على معرفة تلك الأسرار الطبيعية والقوانين التى تحكم مظاهرها .

ومن الإشارات المستنهضة للبحث والدراسة قوله تعالى فى معرض قسمه بالعظيم من مخلوقاته «والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع»(٥) . أى البحر الموقد كقوله تعالى : « وإذا البحار سجرت»(٦) . أى جعلت ناراً »(٧) . أليس للعلم قولة فى كيفية تحول الماء نفسه — وهو أداة إطفاء النار — إلى نار مستعرة ؟ وإذا

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .
(٢) سورة يس ، آيات ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) سورة يونس ، آية ٥ .
(٤) سورة الانعام ، آيات ٩٦ — ٩٧ .
(٥) سورة الطور ، آيات ٦ ، ٧ .
(٦) سورة التكوير ، آية ٦ .
(٧) ناصر الدين البيضاوى ، تفسير **البيضاوى** ، أسعد محمد سعيد الدبال وأولاده : جدة (د . ت) ص ٦٩٤ .

لم تكن هناك قولة بعد أليس الجدير بالعقل الإنسانى أن يجرى وراء هذه الحقيقة دارساً منقباً مستكشفاً ؟ ! !ومن هذه الإشارات أيضاً قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان »(١). قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية : « إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا مافى السموات والأرض فانفذوا لتعلموا ، لكن لا تنفذون ولا تعلمون إلا ببينة نصبها الله فتعرجون عليها بأفكاركم »(٢) ؛وهو ما يفتح أمام الإنسان صفحة واسعة من متابعة العقل والفكر ليصل إلى كنه الوجود و يتعرف على أسرار خلق الله . وحين يقول الله تعالى : « وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ،وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا »(٣). أفلا يدعو به العقل البشرى أن يبحث و يفتش عن سر الحجز ما بين الماءين ، وعن طبيعة هذا الحد والتنافر الذى يؤدى إلى الفصل بينهما فلا يختلطان ؟ ! ! .

إن أمثال هذه الآيات الملهمة الداعية إلى النظر كثيرة فى القرآن الكريم لو أن علماء المسلمين أعطوها حقها من التأمل والإنعام الفكرى ، وتابعوا دلالاتها العلمية ، لكان لهم بذلك سبق أى سبق فى مجال الاختراع والابتكار والفكر العميق .

وجملة القول أن القرآن الكريم جعل الكون كله بما فيه ومن فيه طيعاً لفكر الإنسان ، قابلا للدراسة والبحث والمناقشة للوصول إلى القوانين والنظريات التى تحكم مساره وتفسر طبيعته ؛ دون قيد يوضع على العقول أو حد محدود يلتزم.بل إن إطلاق الحرية العلمية على هذا النحو تعرفاً على أسرار الطبيعة وتعمق خباياها لهو المطلب الذى يؤكده القرآن ،و يغرى بالاستجابة له بكل سبيل ؛لأن به تطمئن القلوب فى إيمانها بربها ،وتزداد اعتقاداً بأنه تعالى هو الحق الحقيق بالعبادة والخضوع المتعالى عن كل مثل وشبيه ، الجدير

---

(١) سورة الرحمن ، آية ٣٣ .

(٢) ناصر الدين البيضاوى ، مرجع سابق ، ص ص ٧٠٦ — ٧٠٧ .

(٣) سورة الفرقان ، آية ٥٣ .

بالخشية والتقى ؛ ولا عجب فهو الذى يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(١).

غاية الأمر أن الله سبحانه وتعالى قد حدد أشياء بعينها مغيبات عن إدراك الإنسان بعيدة عن منال بحثه ، فلا يصح الخوض فيها بالدراسة والتقصى لأنها لن تستجيب كغيرها من محتويات الكون لمقتضيات هذه الدراسة ، ولن يصل الإنسان بعلمه مهما علا وسما وطغا إلى أسرارها ، وهذه الأشياء مذكورة فى آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى »(٢) ، وقوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل إنما علمها عند الله »(٣) ، وقوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير (٤) » . . .

ومن ناحية أخرى كان ذلك مطلباً مراداً من الله تعالى كى تتأكد معجزة القرآن العظيمة فى كل زمان ومكان ، وتنقطع ألسنة القائلين بأنه قول البشر ، ويصح صحة لا شك فيها أنه تنزيل من حكيم حميد . فأنت أيها الإنسان بما فتح لك من باب الحرية العلمية الواسع ، وبما أعطيت من جبروت العقل والتفكير ، وبما توصلت إليه من نتائج تظن أنك لم تسبق إليها ، وعلى الرغم من أن هذه النتائج قد تتعارض مع ما سبقها من نتائج ؛ فسوف تجد أن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرناً مضت سايرك ، ولا يختلف معك ، بل ويسبقك وإن كان ذلك بالإشارة المفهمة لا بالتفصيل المفصل على ما وضحناه فيما سبق . ومن من البشر فى استطاعته أن يقول القول فيظل حقاً لا يتطرق إليه شك الباطل فى أى مرحلة من مراحل التطور

---

(١) سورة فاطر ، آية ٢٨ .
(٢) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .
(٣) سورة الاعراف ، آية ١٨٧ .
(٤) سورة لقمان ، آية ٣٤ .

الفكرى ، وفى أى عهد من عهود البشرية مهما تتابعت السنون وانقضت القرون ، وتبدلت النظريات ؟ ! ! ! إنه لامراء تنزيل من رب العالمين ، « نزل به الروح الأمين »(١). وسبحان الله علام الغيوب .

إن القرآن الكريم على الرغم من أنه بعيد كل البعد عن أن يكون كتاباً علمياً على النمط المعروف من الكتب العلمية ؛ إلا أنه لا يمكن أن يضاد حقيقة علمية مستكشفة ولا نظرية استجدت ، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وصدق الله إذ يقول : « أفلا يتدبرون القرآن ؛ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٢) ».

وهكذا اختلفت الشرائع باختلاف الأزمان والأماكن والأحوال حتى كانت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث اقتضت حكمته تعالى أن تكون هى الأخيرة ، وأن يكون الدين الإسلامى هو الدين الذى لا يأتى من بعده دين آخر . كما اقتضت حكمته أن تكون هذه الرسالة المحمدية شاملة للإنس والجن على امتداد الأعمار والأجيال وتطور النضج الفكرى إلى ما هو أرقى وأسمى ، وكان على جميع الخلائق أن يتخلوا عن كل ما لا يدعو إليه هذا الدين الجديد مما سبق به الرسل ، وألا يدينوا إلا لرسوله وتشريعاته حتى الأنبياء السابقون . قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ . قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟ . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يتقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »(٣). ولما كان لا بد أن تلزم

---

(١) سورة الشعراء ، آية ١٩٣ .
(٢) سورة النساء ، آية ٨٢ .
(٣) سورة آل عمران ، آيات ٨١ — ٨٥ .

الحجة لله على العباد جميعاً إنساً وجناً ، فى الحاضر والمستقبل القريب والبعيد حتى يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى . « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً »(١) . كانت المعجزة الأخيرة إذاً هى القرآن بالمفهوم الذى وضحناه آنفاً .

ومن ناحية أخرى كان لا بد أن يكون هذا الدين الأخير مسايراً كل الأديان السابقة فى أصولها ، آخذاً منها أفضل تشريعاتها نفعاً للعباد فى الدنيا والآخرة على ما تقتضيه سنة التطور والارتقاء ، وأن يكون فى الوقت نفسه أشمل هذه الأديان وأكملها وأبقاها على مر العصور والدهور ، وأعصاها على التغيير والتبديل ، وأرفعها شأناً فيما ينفع البشر أفراداً وجماعات مهما تبدلت الأحوال وتغيرت الظروف وارتقت المدارك وأتت بالجديد . وذلك ما أثبته الواقع ، وسيظل يثبته إلى يوم القيامة ، وصدق الله إذ يقول : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه »(٢) ، و « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا »(٣) .

• • •

وظائف الدين الإسلامى
للفرد والجماعة

العقيدة الدينية عنصر أصيل يساير الطبيعة الإنسانية منذ أقدم العصور ؛ حتى إن الناس عبر تاريخ الحياة الطويل قد مرت بهم أطوار دينية متباينة الاتجاهات مختلفة المشارب ، فحين لم يهتدوا إلى التوحيد عددوا آلهتهم وجعلوا لكل مظهر من مظاهر الحياة إلهاً يدينون له بانتماء وخضوع معين ، وحين وقفت مداركهم قاصرة عن فهم معنى الألوهية الحقة اتخذوا من مظاهر الطبيعة

(١) سورة النساء ، آية ١٦٥ .
(٢) سورة المائدة ، آية ٤٨ .
(٣) سورة الفتح ، آية ٢٨ .

آلهة ، فعبدوا الشمس والكواكب والنار والجن ، ونزلوا إلى مستوى البشر فعبدوا من بينهم أناساً ذوى صفات يجلونها ، بل قد مثلوهم أصناماً تخضع لها أعناقهم ويتقربون بها إلى الله زلفى .

ولقد كانت الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى أثناء هذه الرحلة الطويلة للبشرية معالم طريق لهداية الناس إلى حيث ينبغى الخضوع وتجب العبادة ، وتصحيحاً لمعنى العقيدة الدينية فى نفوسهم استجابة لطبيعتهم الإنسانية فى البحث عن الإله ، ولكن بتدرج مع مستوى حضارتهم الفكرية من أجل أن تصح لهم دنياهم ، ويستقيم لهم مع الدنيا أمر الآخرة . وذلك يدل أصدق دلالة على أن الدين منظم أساسى للحياة ومطلب ملح من مطالب البشر ، يستشعرون أهميته ، ويقوم لهم بتأدية وظائف حيوية لا تكون ولا تسلم إلا به .

ونحن حين نتحدث هنا عن وظائف الدين التى تبرز أهميته لحياة الناس إنما نركز على الدين الإسلامى من حيث هو جماع الأديان السابقة والغالب عليها جميعاً والمتناسب تطوراً مع أرقى ما وصل إليه بنو الإنسان من فكر ومعرفة وحضارة علمية وعمرانية وفيما . يلى أهم تلك الوظائف .

تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه

لقد وضحنا فى المقدمة التى تحدثنا فيها عن نشأة الدين وتطوره فيما سبق أن الدين ضرورة من ضرورات الحياة ، فما كان الله ليخلق الإنسان ثم يتركه يهيم على وجهه لا يعرف الخير من الشر ويعيث فى الأرض فساداً وهو لا يدرى . ولعل فى حوار الله مع الملائكة حين خلق آدم ما يشير — ولو من بعيد — إلى هذا المعنى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ . قال : إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة

فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »(١).

ومن ناحية أخرى لم يخلق الله الإنسان ويعمر به الأرض عبثاً ولهواً « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين »(٢). أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون؟ »(٣) فبهذا المنطق ونحوه فهمنا أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهداه النجدين وشرع له من الشرائع التى تعاقبت وتوالت وتطورت مع تعاقب الأجيال البشرية تنظيما لعلاقته بربه ، وتعريفاً بوجوده السابق على كل وجود ، وإحقاقاً لحقه عليه بالذكر والعبادة والتقديس . وإذا صح فى الحديث القدسى عن رب العزة أنه قال ما معناه « كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف فخلقت خلقى » . فلا شك أن معرفة المخلوق للخالق ذات مقتضيات خاصة ومقدسة تخالف تلك التى تكون بين المخلوق والمخلوق . فالإنسان يعرف الإنسان ليتبادلا النفع والعون فى الشدائد والملمات وليتشاركا فى السراء والضراء ؛ فيعطيه ما عنده وما يقدر عليه ، ويأخذ منه ما ليس عنده وما لا يستطيعه ، ويساعده إن احتاج إلى مساعدة ، ويستعين به إن ألمت به ضائقة تحتاج إلى سواعد الرجال ، ويخفف عنه المصيبة — إن حلت — بمواساته ، ويستزيد به سرورا إن مسته يد السرور ، ثم يتوقع منه مثل هذه وتلك فى مثل الظروف المصاحبة ، وذلك من شأنه أن يحبب الحياة إلى الأحياء من بنى الإنسان ، ويجعلها معروفة الدرب مأمولة الخير مأمونة الجانب. ولكن الله الغنى عن كل ما يملك خلقه لأنه واهبه والمبرأ من نقص الاحتياج إلى أى مخلوق لأنه خالقه ؛ إذا أحب أن

---

(١) سورة البقرة ، آيات ٣٠ — ٣٣ .
(٢) سورة الانبياء ، آيات ١٦ ، ١٧ .
(٣) سورة المؤمنون ، آية ١١٥ .

يعرفه خلقه فإنما ذلك بأسلوب آخر يتمثل فيما يجب على العبد نحو سيده ، والضعيف نحو القوى ، والمملوك نحو المالك ، والذليل نحو العزيز ، والمحتاج نحو من لا يستغنى عنه . وطبيعى أن ينتظر المخلوق — بما هو عليه من عبودية وضعف وذلة وخضوع واحتياج — أوامر الخالق العظيم بلا حدود وما يريده منه لتتم معرفته به على نحو يرضيه هو . ومن هنا كانت تشريعات الله لعباده فى ظل الأديان السماوية كلها ، وتنظيماته المحققة لحسن العلاقة بين الإنسان وربه متمثلة كلها فى معنى واحد أشار إليه سبحانه فى آية قرآنية جامعة هى . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »(١) .

ولقد فصل الله سبحانه وتعالى العبادة التى يريدها من خلقه على لسان رسله الكرام مما كان واحداً فى جوهره مختلفاً فى بعض تفصيلاته من رسول إلى رسول ، ومن طور فى البشرية إلى طور آخر فيها على غرار ما ذكرناه فى المقدمة(٢) . ولست هنا بصدد الحديث المفصل عن تلك العبادات لا فى الأديان السابقة ولا فى الدين الإسلامى ؛ إذ مجال هذا التفصيل هو كتب الفقه وغيرها من الكتب المتخصصة . ولكنى أحب هنا أن أنبه إلى شىء واحد هو أن الإسلام فى تشريعاته للعبادات المطلوبة من المسلمين تنظيما لصلتهم بربهم لم يقتصر — كما يتبادر إلى الذهن — على تلك الأمور الروحانية الصرف من مثل « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » ومن مثل بيان الحلال والحرام ؛ وإلا لكان قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . . . » دعوة مباشرة إلى الرهبانية والتبتل والانقطاع لمثل هذه العبادة الروحية دون السماح بتصريف أمور الدنيا وهو يتعارض مع آيات كثيرة فى القرآن ، وتعالى الله أن يكون فى قرآنه

---

(١) سورة الذاريات ، آيات ٥٦ — ٥٨ .

(٢) راجع المقدمة من ص ٣٧٩ — ٤٠١ .

اختلاف وتعارض ، وإنما جعل الإسلام — رحمة بالمسلمين — كل تصرفات الناس عبادة إن هم أرادوها على هذا النحو ، سواء منها ما هو متعلق بشئون الدنيا أو بشئون الآخرة ، ذلك لأن الله سبحانه هو الذى دعا إلى هذا كله وأمر به أن يكون من عمل عباده ، وما كان له أن يأمر بشئ ويدعو إليه وهو بعيد عن مجال تنظيم الصلة بينه وبينهم . فهو الذى دعا الناس أن يمشوا فى مناكب الأرض ويأكلوا من رزقه ، وهو الذى دعاهم أن يبحثوا ويدرسوا بالنظر فى السموات والأرض ، وهو الذى دعاهم أن يستمتعوا بما خلق لهم من طعام وشراب وزينة ورياش ولباس ، وهو الذى أمرهم أن يكتبوا الدين إذا استدانوا وأن يرتهنوا به إن لم يتيسر لهم الضمان بالكتابة ، وحثهم على التجارة والتعلم وغير ذلك من الأمور الدنيوية العديدة ، ولكنه فى الوقت نفسه نظم هذه الأمور الدنيوية كلها لهم على نحو يربطها بتقوى الله وعبادته ، فمن أرادها عبادة لله قصدها فكانت كذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كان هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن ثم كان اكتساب المال من طريق حلال عبادة ، وكان الإنفاق بلا إسراف أو تقتير عبادة ، وكان السعى على العيال وإغناؤهم بلا جنوح إلى المحرمات عبادة ، والتحدث بنعمة الله دون فخر أو تعال عبادة ، وهكذا . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة(١) » . والكلمة الطيبة صدقة : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها »(٢) . والصبر على المصيبة صدقة ، حتى الشوكة يشاكها المرء فتؤلمه فيدخر ذلك احتساباً عند الله صدقة :

---

(١) الشيخ منصور على ناصف ، **التاج الجامع للاصول فى احاديث الرسول** ، الجزء الثانى ، دار الفكر : بيروت ، ١٩٧٥ ، ، ص ٢٣٠ .

(٢) سورة ابراهيم ، آيات ٢٤ ، ٢٥ .

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون؛ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»(١). «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» (٢). « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »(٣). والإنسان يأكل ويشرب ويتزوج ويتناسل ليكون هو مسلماً قوياً : « والمسلم القوى خير من المسلم الضعيف » ، ويبنى مجتمع المسلمين فيرهب به عدو الله وعدوهم ؛ كل ذلك ضروب من عبادة الله .

وهكذا كل عمل تتصوره دنيوياً هو لك عند الله حسبة إن قمت به على الوجه الذى أراده الله منك . ولكن إذا جانبت به حدود الله ولم تقصد به رضاه فقد أغفلت جانباً كبيراً مما يجب عليك نحو نفسك ، وما كان بإمكانك أن تعتمده من الله تعالى إضافة ممتازة إلى كشف حسابك الذى تعبر به الحياة الدنيا نفساً راضية مرضية فتدخل فى عباد الله وجنته يوم القيامة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(٤). « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون »(٥).

إسعاد الإنسان فى حياته الدنيا

لقد جاء الدين الإسلامى بتشريعاته وتعاليمه لا ليصل الإنسان بربه فقط. ولكن ليصله كذلك بحياته الدنيا وبكل ما فيها من مظاهر وأحوال ، بانياً هذه الصلة الأخيرة على أسس تفيض بالخير وترسى دعائم السعادة الحقيقية

---

(١) سورة البقرة ، آيات ١٥٥ — ١٥٧ .
(٢) سورة العنكبوت ، آيات ٢ ، ٣ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٤١ .
(٤) سورة الزلزلة ، آيات ٧ ، ٨ .
(٥) سورة يونس ، آية ٤٤ .

والرفاهية الإنسانية ، والعيش فى سلام وطمأنينة وراحة بال ، ومن ثم وضع له قانوناً أخلاقياً متميزاً ، وحدد له واجبات إنسانية يلتزم بها ، ومن له مجموعة من القيم الاجتماعية التى تهديه فى سلوكه إلى ما يحقق له هدف السعادة فى حياته الدنيا .

فالإسلام يعلم الناس الأدب أرفع الأدب فى أمور حياتهم ، إنه يعلمهم مثلا كيف يتوادون ويتزاورون ويتعاونون ويتصل بعضهم ببعض دون أن تحدث إساءات للنفوس ، ودون أن يثقل أحد على أحد ، أو أن يكون فى سلوكه الاجتماعى هذا منفراً . انظر إليه يرسم السلوك المهذب الرشيد حين يزور الناس بعضهم بعضا ؛ فليس لأحدهم أن يقتحم بيت غيره فجأة أو بلا استئذان أو حتى بغير استئذان رقيق ، بل بسلام على أهل البيت ، واستئذان فى الدخول إن كان ثمت من يأذن له ، وإلا رجع حتى لا يقع على عورة فى البيت ، أو لا يظن به الشر والإفساد . اللهم إلا إذا كان المكان الذى يراد دخوله من الأماكن العامة كحوانيت التجارة ونحوها مما يفترض من أهلها وأصحابها الإذن العام لكل داخل قضاء للمصالح وتبادلاً للمنافع . « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ؛ ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون »(١) ، ثم هناك أوقات للراحة والاسترخاء وعدم التهيؤ لملاقاة الزائرين بالتحفظ فى ستر العورات مثلا أو الاستعداد بالملبس اللائق ؛ فأولى بها ألا تكون وقتاً للزيارة لأولئك الذين تصح مخالطتهم ولغيرهم من باب أولى ؛ اللهم إلا إذا اقتضت الضرورة فيلزم الاستئذان حتى من أقرب المقربين ؛ « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا

---

(١) سورة النور ، آيات ٢٧ — ٢٩ .

الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ؛ ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض »(١) .

وهذه لفتة أخرى من الأخلاق السامية التى أدب بها الإسلام أهله ؛ إنه ينهى عن أن يسخر أحد بأحد ، أو أن يغتابه ، أو يتتبع عوراته ، أو يظن به السوء ، أو يدعوه بما يكرهه من الأسماء والألقاب . ولقد كان بالغ العنف فى النهى عن ذلك ، مع جمال التأتى وحسن المدخل إليه ؛ حتى إنه فى معرض الحديث عن بعض هذه السيئات الاجتماعية ألصق بمن فعلها عار فحشها وقبيح سيئها ؛ « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ؛ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »(٢) .

وهذه أخرى من تهذيب الإسلام للسلوك الإنسانى وطبعه بطابع الخلق الكريم ؛ إنه يحث على إنهاء الخصومات ، وغرس المحبة والإخاء فى النفوس ، ويضيق الخناق على التباغض والحسد والنفور والكراهية بين الناس ؛ فيدفع بعضهم أن يشعروا بآلام بعض فيخففوا لتخفيف تلك الآلام حتى تستل من بينهم الأحقاد وتموت فى أجوائهم العداوات ، ويقوى الجميع بالجميع ، ويستجيبون لقول ربهم « واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا »(٣) . وأى شىء أقوى فى خلق هذه الروح من دعوة الإسلام إلى إصلاح ذات البين بين الجماعات والأفراد بالتوسط الحميد لإنهاء خلافاتهم : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا

---

(١) سورة النور ، آية ٥٨ .
(٢) سورة الحجرات ، آيات ١١ ، ١٢ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم »(١) . « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله بما تعملون خبير »(٢) ، « وإن خفتم شقاق بينهما(٣) فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما »(٤) .

وفي سبيل التضامن والتحاب وخلق روح المودة بين الناس يدعو الإسلام إلى التثبت قبل الاتهام ، « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »(٥) . « وفي ذلك أيضاً يدعو إلى حسن الجوار وصلة الأرحام والبر بالوالدين . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب والصاحب بالجنب »(٦) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » ، « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه »(٧) . « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : من بات شبعان وجاره جائع » . وفي هذا المعنى يدعو الإسلام إلى التخلق بخلق الأمانة ، والعدل ، وحب الخير للناس ، ومعاملتهم بالحسنى ، وعدم التعرض لهم بما يكرهون حتى ولو كان دعوة لخيرهم . والآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا تحصى ولا تعد في هذا الصدد .

---

(١) سورة الحجرات ، آيات ٩ ، ١٠ .
(٢) سورة النساء ، آية ١٢٧ .
(٣) بين الزوجين .
(٤) سورة النساء ، آية ٣٤ .
(٥) سورة الحجرات ، آية ٦ .
(٦) سورة النساء ، آية ٣٥ .
(٧) بوائقه أي شروره .

بقول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى »(١) ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ؛ إن الله نعما يعظكم به »(٢). ويقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ، ويقول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن »(٣). « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(٤). « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد (٥). وفى معنى المجادلة الحسنة التى تحبب ولا تنفر قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين »(٦). وقوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »(٧). استنكاراً للإكراه ، وقوله كذلك « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين »(٨). إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى الإخاء بين الناس ، وبذر بذور المودة والتعاطف بينهم ، وممارسة سلوك المجاملة حتى مع غير المسلمين من أهل الكتاب أو الكافرين .

ثم أليس فى تحريم الربا — وأساسه استغلال معاناة المحتاجين وعوز المعوزين — ما يدعوا إلى التسليم بأن الدين الإسلامى قائم على الرحمة بالناس والعطف عليهم وتخفيف العنت عن كواهلهم وتقريب بعضهم من بعض نفساً وروحاً حين

---

(١) سورة النحل ، آية ٩٠ .
(٢) سورة النساء ، آية ٥٧ .
(٣) سورة النحل ، آية ١٢٥ .
(٤) سورة فصلت ، آية ٣٤ .
(٥) سورة العنكبوت ، آية ٤٦ .
(٦) سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .
(٧) سورة يونس ، آية ٩٩ .
(٨) سورة الكافرون ، آية ١ — ٦ .

يتعاونون فى الشدائد دون استغلال ، ويأخذون بأيدى الفقراء منهم دون أن يثقلوا كواهلهم ، فيرتد ذلك رضا فى النفوس وتفانياً فى النصرة الجماعية ومحافظة مخلصة على الأموال والأرواح والأعراض وسعادة للفرد والمجتمع . وانظر إليه تعالى يجعل إقراض الناس إقراضاً له وينصب من نفسه آخذاً للصدقات ، «من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ؟ »(١) . « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات»(٢) . إنه لأسلوب يهون على الإنسان كل ماديات الحياة ؛ ومن ذا الذى يعزف عن إعطاء الله وينتظر منه أعظم رد لما أخذ وأكرم وفاء بما قبل منه ! ! إنه لخلق قويم وأدب رفيع فى تعامل الناس شرعه لهم الإسلام ليكونوا بنعمته إخواناً أصفياء وأصدقاء متحابين .

وهذا شأن آخر من شئون الآداب السامية التى أدب الإسلام بها أتباعه حتى يعيشوا سعداء فيما بينهم ، يتبادلون الاحترام والمحبة ؛ ذلك هو التواضع وعدم التعالى والتكبر على الناس بجاه أو بمال أو بسلطان ، فقد جعله الدين الإسلامى من أعظم القيم وأسمى الأخلاق ، ودعا إليه بحرارة وقوة حين جعل «الناس سواسية كأسنان المشط ؛ لا فرق لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق » ، وحين ذكرهم بأصلهم الواحد أبا وأما ، وبالتراب ثم النطفة التى هى أصل منشئهم جميعاً ، حتى يعلموا أن من كانوا بهذا المعنى إخوة لا يحق لأحدهم أن يدعى على الآخرين علواً فى الأرض ، ولا يستقيم له أن يزهو « بأصله وفصله » فيجعله أساساً لمفاضلة أو قاعدة الانطلاق إلى التكبر ، « كلكم لآدم وآدم من تراب »، « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٤٥ .
(٢) سورة التوبة ، آية ١٠٤ .

أتقاكم»(١)، فليس التشعيب والتفريق فى الأمم والقبائل والممالك إذًا مدعاة لرفعه قوم على آخرين، وإنما هو من أجل كمال التعارف. فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق؛ يخرج من بين الصلب والترائب».(٢) ثم انظر إلى هذا التأتى الرقيق فى الدعوة إلى خلق التواضع فى النفوس حين يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»(٣). «ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا؛ كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها»(٤)، وفى حكاية القرآن الكريم عن لقمان حين يعظ ابنه: «ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا. إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»(٥). «إنه لا يحب المستكبرين»(٦) «فلبئس مثوى المتكبرين»(٧)، وهذه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تأخذ هذا المسار نفسه «من تواضع لله رفعه»، «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»، وقول عمر رضى الله عنه حين أمر برد الظلامة عن أحد الرعية والقصاص ممن ظلمه وهو ابن عمرو بن العاص حاكم مصر فى عهده «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا». يا له من إسلام كريم فى أخلاقه، لطيف المدخل إلى ما يدعو إليه من قيم، مهذب الكلم فيما يستل به من النفوس صلفها وعجرفتها؛ فتلين مجبولة على الاحترام وحسن المعاشرة.

وبغض النظر عن أن يكون نظر الرجل إلى المرأة ونظر المرأة إلى الرجل مدعاة للفسق والوقوع فى الخطيئة؛ أليس ذلك خلقاً اجتماعياً سيئاً تأباه إنسانية الإنسان. أليس يضايقك أن تسير فى الطريق فترى الأعين تكاد

---

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.
(٢) سورة الطارق، آيات ٥ — ٧.
(٣) سورة الفرقان، آية ٦٣.
(٤) سورة الاسراء، آيات ٣٧، ٣٨.
(٥) سورة لقمان، آيات ١٨، ١٩.
(٦) سورة النحل، آية ٢٣.
(٧) سورة النحل، آية ٢٩.

تلتهمك بنظراتها؟ أو أن تكون زوجك أو إحدى قريباتك فى مكان أى مكان فتتعلق بها الأبصار بفضول سخيف ؟ ألا ترى معى أنك فى بعض الأحيان تكاد تهم بحفنة من تراب تنثرها فى وجه هؤلاء الناظرين حتى يغضوا من أبصارهم وينصرفوا عن فضولهم؟ إن هذه حال سيئة وخلق ذميم إذا شاع فى المجتمع أشاع فيه ضيق الناس بعضهم ببعض وكراهة بعضهم لبعض، وبعد بعضهم عن بعض . وعند ما يزداد الطين بلة فت فى عضد المجتمع وسلب منه روح التماسك الذى يقوده إلى عزته وكرامته . ولقد ساير الدين الإسلامى تلك الطبيعة الإنسانية ؛ فدعا الناس رجالا ونساء أن يقلعوا عن تلك الرذيلة ، ويلتزموا بفضيلة غض البصر : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن . . . »(١)، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس فى الطرقات ، قالوا يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا ؛ نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حقه ؟ قال : غض البصر وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »(٢).

هذا ولسنا بصدد أن نحصى كل ما يسعد الفرد والمجموع مما شرعه الإسلام اخلاقاً عالية وفضائل سامية، وقيما إنسانية محمودة ؛ لأنه هذا مما يعجز الفرد عداً . فالإسلام فى جملته قائم فى كل ما شرع للعباد وأوجب عليهم على الفضائل والمثل العليا والتعامل المهذب الرقيق . وما التعاون على خير الناس ، والصفح عن المساءات ، وكظم الغيظ وامتلاك النفس عند الغضب ، والعفو عند المقدرة ، وإحساس الناس بالناس فى السراء والضراء مجاملة ومواساة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واحترام الصغير وتوقير الكبير ، والسماحة فى البيع والشراء والاقتضاء ، والوفاء بالعهود . . . ؛ إلا أمثلة قليلة من بحر خضم لا يسبر غوره إلا من عرف حقيقة الإسلام ذلك الذى عبرت عنه عائشة حين

---

(١) سورة النور ، آيات ٣٠ ، ٣١ .

(٢) الشيخ منصور على ناصف ، **مرجع سابق** ، ص ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولها « كان خلقه القرآن » . وذلك كله من أجل أن يستمرىء الإنسان طعم الحياة ؛ سعيداً كريماً فى نفسه وفى الناس أجمعين .

ولست فى حاجة إلى أن أؤكد أن هذه الآداب السمحة وتلك الأخلاق العالية وأمثالها مما قام عليه الدين الإسلامى وشرعه قانونا اجتماعياً للناس ؛ تفعل الكثير والكثير جداً — لو أنها شاعت وتمسك بها المسلمون — فى تقريب ما بين الناس . وتوحيد أهدافهم ومصالحهم ، وتوثيق عرى التضامن والأخوة بينهم ؛ تلك التى تتفتت على صخرتها العاتية معاول الأعداء الهدامة ، ومحاولات الكائدين المدمرة ، ويرتد عنها وبها كل من يريد النيل من الإسلام خائباً مدحورا ؛ فيعلو مجتمع المسلمين شامخ الهامة ، موفور الكرامة ، مهيب الجانب ، منصوراً فى كل أمل يطمح إليه ويسعى إلى تحقيقه ، بعيداً عن التنازع والتناحر الذى يؤاخيه الفشل ويواكبه الضعف والاستكانة ، وصدق الله إذ يقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »(١) . « واذكروا إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »(٢) .

وما كان ذلك ليكون لولا هذه المثل الأخلاقية البينة التى تفتح ينابيع الخير فى المجتمع ، وتجرى بها أنهار الدماثة والسلاسة والصفاء بين أفراده .

هذا ولم يغفل الإسلام فى سبيل إسعاد المسلم أن يضع له فى إطار من الحكمة البالغة قوانين وقواعد تحكم جميع معاملاته الدنيوية ، وتنظم ما يحتاج إليه من تصرفات وسلوك فى دنياه ، كالبيع والشراء والارتهان والمضاربة والاستئجار والاتجار والقضاء بين الناس والعقوبات على الجرائم وغير ذلك مما تقتضيه أمور المعيشة وما لا يمكن الخوض فى تفاصيله هنا . ولكن يكفى أن نقول إن كل

---

(١) سورة الانفال ، آية ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

(ومن هذه النعمة لا شك تلك الاخلاق السامية التى سنها للناس شرعة ومنهاجا .)

هذه التشريعات المنظمة للحياة الدنيا قد وصفها الحكيم الخبير الذى يعلم ما يصلح النفوس التى خلقها وما يفسدها ؛ فجاءت تامة الأركان لا عوج فيها ، ولا شك فى تحقيقها لسعادة الأفراد ؛ يشهد بذلك الواقع الملموس عند تطبيقها ونتائج البحوث والدراسات الحديثة التى جاءت مطابقة لأحكامها .

علاج الأزمات النفسية للأفراد

كان من الممكن أن يدخل علاج هذه النقطة فى الكلام عن وظيفة الدين السابقة وهى : « سعادة الإنسان فى حياته الدنيا » لولا أنها ذات أهمية بارزة بين وظائف الدين الإسلامى مما يقتضينا إفرادها بقول خاص .

فلو أننا أنعمنا الفكر فى قول من يقول بأن حياة كل فرد تنتهى بموته ، وأنها الطبيعة فلا آخرة تأتى ، ولا حساب يقام ، ولا عقاب على ذنب يرتكب ، ولا ثواب على إحسان ينجز ؛ لأدركنا أن حياة الإنسان على هذا الكوكب سوف تمتلىء بكل ما ينغصها ويثقل أحمالها على الأحياء من بنى البشر ، ولكانت حياة شبيهة بحياة البهائم والسباع يأكل فيها القوى الضعيف ، وينهب القادر العاجز ويستغله لقضاء مصالحه الشخصية ، ويدافع غيره بالمنكب القوى ليأخذ منه ما يأخذ عنوة واقتداراً . وما الذى يمنعه من ذلك وهو يعلم أن ما يعمل لا يوزن عليه بميزان العدالة المطلق ، ولا يوضع فى حساب من يجزيه عن علم ويقين إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وإذا قيل إن القوانين الوضعية التى يشرعها الناس لأنفسهم حاكمة لتصرفاتهم ومحددة لكل فرد حدوده تتكفل بمنع الموبقات والمنغصات من مثل استغلال العاجزين ، ونهب الضعفاء ، وتحقيق المصالح الفردية بالغلبة والقهر والافتئات على الناس ، ومن ثم تخف الحياة على الأحياء ، وتظلهم فيها السعادة ؛ فأنا أقول : إن هذه القوانين وإن ضبطت التصرفات الإنسانية بعض الضبط إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون مظهراً خالياً

من المضمون والجوهر ، وبخاصة إذا كان الفرد يعلم أن كل سلوك مرهون بظروفه الخاصة التى يصطنعها هو ويلفقها ويحتال بها على تلك القوانين الصماء التى لا تنفذ إلى أغوار النفوس لتعلم ما فيها ، ولا تستطيع أن تسيطر على القلوب فتقف على تدبيراتها الخفية وهواجسها المنحرفة . وكم سمعنا عن براءة حكم عليهم القانون نفسه بالعقوبات الصارمة ، وكم عرفنا عن حق ضاع لأن بعض الناس ألحن بحجته من بعض ، وكم جار جائر فى حضرة القانون ، وكم مات أناس بحسرة ما ضاع منهم ظلماً وعدواناً دون أن يقدر القانون على استرداد ما ضاع منهم ، وما أكثر ما نسمع عن ديكتاتوريات متنعة فى سبلاد من العالم تقر القوانين وتميل بها حيث يميل هواها ، وتحكمها فى رقاب الأذلاء دون أن يكون لها عندهم صوت مسموع ؛ حتى إذا جاءت ساعة مواتية تبدلت الحال ، وتغيرت الموازين ، وتغلب شر على شر إلى أن تحين ساعة أخرى . فمن لهؤلاء جميعاً يرد ظلامتهم ويتصف مظلومهم ؟ ! ! إن النتيجة المحتومة لهذا كله هموم متلاحقة للبشر تعصف بهم عصفاً ، وتوردهم موارد الهلكة والبوار ، فلا ينجو من ويلاتها قوى أو ضعيف ، ذليل أو عزيز ، جائر أو مجور عليه . وبمعنى آخر تختفى السعادة الحقيقية من الحياة ، وتكثر فيها الأزمات النفسية العنيفة التى تستعصى على الإزالة أو حتى على التخفيف ، فتضحى مدمرة يموت بها صاحبها دنفاً سقيماً مغلوباً على أمره . وما حوادث الانتحار التى نسمع عنها كثيراً إلا صوت هذا الواقع المر فى الناس ، وصدى معاناتهم من ويلات الحياة الدنيا التى لا يجدون لها عن أنفسهم دفعاً ، كما أثبتت التحقيقات الرسمية فى كثير من حوادث الانتحار .

وكل هذا يحدث عند غياب الاعتقاد بوجود المطلع على الصغيرة والكبيرة ، العالم بالسر والعلن ، العادل المطلق الذى لا تخفى عليه شاردة أو واردة ، المحاسب على العظيم والقطمير فلا يند عن حسابه مثقال ذرة من عمل فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

ولكن تعال معى أيها القارىء الكريم نبحث الأمر فى ضوء ما نعرف عن

الدين الإسلامى وتشريعاته . إن هذا الدين يدعو المسلم أن يؤمن من ناحية بأن هناك يوماً للحساب الدقيق هو يوم القيامة أخفى علمه عن الناس لاستكمال معنى الابتلاء والاختبار من الله للناس ، ومن ناحية أخرى لا يقوم على هذا الحساب قانون من صنع إنسان خطاء . ولا دستور ينفذه عاجز عن معرفة سرائر الناس وأحابيل الخداع التى ينسجون ، وإنما ينصبه ويدبر أمره رب العالمين الذى «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور»(١) ، والذى يواجه الإنسان بعمله الظاهر والباطن بكل الدقة والأمانة ، ويلزمه الحجة الدافعة التى لا يجد أمامها إلا أن يقول : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين »(٢) ، «ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل »(٣). وأى إنكار يجدى ؛ وأى خداع ينفع ؟ وأى تهرب من جريمة يقبل ؟ « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون(٤). « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء »(٥) ، وإذاً فمن آمن بالإسلام ديناً لا يسعه إلا أن يكون صادقاً مع نفسه وربه حتى لا يضل سعيه فى الحياة الدنيا ويحكم عليه بالثبور فى الآخرة. ومن هنا تكون الآخرة أمل العاجز عن رد ظلامته فى الدنيا ، ومتطلع المهضوم المغلوب على أمره كى ينتصف ممن ظلمه فى دار الحيل والأباطيل .

وما دامت الحال هى هذه الحال فلا هم ولا حزن يجريان بين الناس من جراء ظلم الإنسان للإنسان ، ولا عقد نفسية مردية تؤود من لم يستطع أن ينتصف لنفسه فى الحياة الدنيا ، ولا حسرة ولا سقم ينوء بهما كاهل العاجز عن أخذ ثأره فى دنياه ؛ ذلك لأن الدنيا ليست نهاية المطاف ، وما فات فيها متدارك فى حياة غيرها هى الحياة الآخرة ؛ فلن يفلت ظالم بما ظلم ، ولن يختفى سارق بما سرق ، والله للجميع بالمرصاد يثأر للمظلوم من الظالم بما يرضيه ، ويرد

---

(١) سورة غافر ، آية ١٩ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية ٤٦ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية ٦٧ .
(٤) سورة النور ، آية ٢٤ .
(٥) سورة فصلت ، آية ٢١ .

الحقوق المغتصبة لأهلها بما يجعلهم يتمنون أن لو كانت لهم حقوق أخرى مغتصبة . ومن ثم تهون على الناس المصائب ، وتتحطم أزماتهم النفسية ، و يسخرون من النكبات والهموم ؛ لأنهم يستطيعون أن يلقوا بها فى أتون خاص يبدل لهم أحزانهم مسرات ، و يضيف إلى معطياتهم الخيرة الشيء الكثير ، و يستزيد من مدخراتهم الطيبة عند الله « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »(١). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار. قال : المفلس من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج وقد ضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، حتى إذا لم تبق له حسنات أخذ من سيئاتهم فألقيت عليه فكب بها فى النار » ، أو كما قال .

والمسلم يعلم — بحكم ما عرف من دينه — أنه مبتلى بالشدائد والمحن « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات »(٢) كما أنه مبتلى بالنعمة من محبوبة العيش وكثرة المال والولد : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة »(٣). « ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم »(٤). ويعلم أيضاً أنه إن صبر فى الضراء وشكر فى النعماء فله عقبى الدار ، وإن كان غير ذلك فعليه اللعنة وله سوء الدار. وإذاً فهو على أية حال أمامه الفرصة أن ينال الحسنى ، ويحصل على الخير والسعادة « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »(٥) « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد »(٦) . وحينئذ فالهم والحزن فى الدنيا — بهذا

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٨٨ .
(٢) سورة البقرة ، آية ١٥٥ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية ٣٥ .
(٤) سورة الأنعام ، آية ١٦٥ .
(٥) سورة البقرة ، آيات ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٦) سورة ابراهيم ، آية ٧ .

الأسلوب فى السلوك — مدخر له سعادة فى الآخرة . وهو بهذه الحكمة البالغة يرضيه الفقر إن أصابه مهما اغتنى من حوله الناس ؛ لأنه بطاعة الله وامتثال أوامره شبعان ، ولا تجزعه المصيبة جزعاً يفتح له باب الهروب من الدنيا بالانتحار مثلا ، أو يزرع فى نفسه الحقد على غيره ، أو يحرك الثورة فى قلبه على ما هو فيه فيفسد فى الأرض أو يكيد لغيره من المطمئنين السالمين ؛ لأنه على يقين أنه بما عند ربه له غير خاسر ولا مغبون . وهو بهذه الحكمة الحكيمة لا يبطره الغنى وصلاح الحال فيطغى بهما على غيره من عباد الله ؛ لأنه يعلم إن كان قد أدى شكر النعمة عليه ونجح فى الامتحان فهو ينتظر على شكره الثواب ويأمل فى نعيم مقيم .

إن الإنسان يعيش سعيداً بالأمل ، فإذا فقد الأمل فى هذه الحياة المادية وجد الأمل — إن كان مسلماً — فى حياة الروح ، حياة الآخرة ، حياة الإسلام الذى وعد الصابرين من أهله على شدائد الدنيا ومصائبها وكروبها ومضايقاتها الأجر بغير حساب « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (١) . أما أولئك الذين يقولون : « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (٢) ، فهم فى دنياهم — إن أصابهم الشر — آيسون . وقد لا يجدون مخرجاً من آلامهم إلا بتوديع تلك الدنيا التى كانت كل آمالهم ففقدوا فيها الأمل ، ولم يروا بعدها بعداً يتكفل بحل مشاكلهم فيئسوا أن يجدوا لمشاكلهم حلا . ولا أدل على صدق هذه القضية من كثرة الانتحار بين الأغنياء ومن يعدهم الناس سعداء بما يملكون ، بل لقد نسمع أن أعظم الناس شقاء فى دنياهم هم أصحاب الحظ العظيم من الثروة والجاه والسلطان ؛ حيث لم يغنوا حقيقة بغناهم ، ولم يسعدوا فعلا بما أوتوا من سلطان وجاه ، ورانت عليهم الهموم والآلام التى تعظم بعظم الغنى والسلطان سنة لدنيا الناس لن تجد لها تحويلا ؛ فكانت أقوى من كل

---

(١) سورة الزمر ، آية ١٠ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٣٧ .

مادة وأعتى من كل جبروت. ولن يكسر من قوتها ويضعف من سلطتها إلا أمل فى حياة خالية من الهموم والآلام ، وذلك ما يوفره الإسلام بشرعه الحكيم .

وبهذا التدبير الحكيم يرضى كل إنسان بما عنده وما قسم له ،وتنصلح النفوس وتنسجم الحياة ، ويسعد بها البشر مهما قست عليهم ، خاصة وأنه ليس فى الإسلام باب مغلق أمام العبد — إذا انزلقت قدمه وخرج عن طاعة الله — أن يرجع إلى ربه مرة أخرى ويتوب فيقبل الله توبته ويدخله فى رحمته ،حتى أولئك الذين زادوا وجاوزوا الحد فى المعصية والطغيان لهم مكان فى رضوان الله، ومن ثم فلا داعى إطلاقاً لأن يتعقد شخص فيهرب من دنياه ،أو ييأس فيكره الحياة، أو تنتابه الأزمات النفسية الثقيلة قنوطاً من عيشه المقدور « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم »(١). « إنما التوبة على اللهالذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ،فأولئك يتوب الله عليهم »(٢)، « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ،وكان الله غفوراً رحيما »(٣). « إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين »(٤).

وهل بغير هذا يطمئن الناس إلى مقدراتهم وهم — لا محالة — مختلفون فيما قدر لهم كى يعمر الكون وتستمر الحياة ؟ وهل بغير هذا تموت الأزمات النفسية ويستريح الناس من شر ما تفعل بهم ؟ وهل بغير هذا يستكمل الإنسان سعادته فى دنيا كلها نصب وتعب وإرهاق وقلق « ولقد خلقنا الإنسان فى كبد »(٥)؟ .وهل بغير هذا تنمحى الشرور ويعم السلام بين الناس ؟ . وهل بغير هذا يقوى الضعيف، ويعز الذليل ، ويغنى الفقير ،ويسلم ذو البلية ؟ .

---

(١) سورة الزمر ، آية ٥٣ .
(٢) سورة النساء ، آية ١٧ .
(٣) سورة الفرقان ، آية ٧٠ .
(٤) سورة هود ، آية ١١٤ .
(٥) سورة البلد ، آية ٤ .

وهل بغير هذا تنصلح حال البشرية وتشفى النفوس المريضة ؟ وهل بغير هذا يدوم الكون نظامه إلى يوم يبعثون ؟ وصدق الله إذ يقول : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » (١).

نهضة المجتمع وقوة بنائه

تقوم المجتمعات العظيمة دائماً على أسس ثلاثة هى :

(ا) القوة الدفاعية والاستعداد العسكرى الذى يقف فى وجه الطامعين ، وينتصر على من ينتهك حرمات الوطن ومقدساته .

(ب) النهضة الاقتصادية التى توفر للفرد احتياجاته ، وتكفى المجتمع مؤنة القيام بالمشروعات الصناعية والزراعية والعمرانية والاجتماعية التى تسمه بالرفاهية ، وتحقق له أهدافه دون الاعتماد على غيره من المستغلين مما يوقعه حتما فى شراكهم ويحرمه الاستقلال الحقيقى .

(حـ) التربية السليمة لكل أفراد المجتمع بما يجعلهم لبنات صالحة يقوى بها بنيانه ، ويرتفع صرحه ، ويستعصى على معاول الهدم ، وينتصر على كل صعوبة تعوق مسيرته الحضارية .

والدين الإسلامى لم يأل جهداً ولم يدخر وسعاً فى ترسيخ هذه الأسس ووضع التشريعات المناسبة لها والقواعد التى تحقق أهدافها . وفيما يلى نتناول هذه الأسس الثلاثة بشىء من التفصيل .

القوة الدفاعية فى الاسلام :

وضع الإسلام للمجتمع مجموعة من القواعد والمبادىء فى صدد القوة الدفاعية

---

(١) سورة الاسراء ، آية ٨٢ .

ما ينبغى ألا تغيب أبداً عن أعين المسلمين وجهودهم الصادقة . وأول هذه المبادىء وعلى رأسها جميعاً الاستعداد الدائم بما يخيف الأعداء منهم ، ويجعلهم دائماً على حذر من بطشهم إن هم أرادوهم بسوء. ومن ذلك ما دعا إليه القرآن الكريم من أخذ العدة والتخطيط لملاقاة الأعداء بمنتهى العزم والحزم وبكل ما يضمن النصر ويحقق لهم الغلبة ؛ فقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . ترهبون به عدو الله وعدوكم »(١). ولا شك أن الإعداد المستطاع من القوة يختلف باختلاف الظروف والأزمان والأحوال ، فليس هو اليوم كما كان عليه فى عهود غبرت ، وكما يكون عليه فى ظروف وأزمان تقبل . ومن ثم يحتاج الإعداد السليم إلى تخطيط حكيم حيث إن أمر الحرب اليوم وغداً من التعقيد بما لا يصح أن تركب الأهواء مطاياها إليه ، ولا أن يستهان بأمره فيستعان عليه بالانفعالات المحمومة والأصوات العالية التى تضيع أصداؤها فى الفضاء ، وإنما هو شىء آخر يهدى إليه العقل وتقود إليه البصيرة. ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم حين يخطط لأدوار الحرب والسلم يقدر قوته حق قدرها فى مواجهة الأعداء انطلاقاً من معنى تلك الحكمة السامية « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » ، فلم يكن هناك ما كان يمنعه من اللجوء إلى المسالمة مع قوم حتى يتفرغ لآخرين ، أو يعاهد معشراً ليأمن شرهم ويفرغ لقومه وبناء مجتمعهم .ولقد خرج عليه السلام وأصحابه من مكة مهاجرين إلى المدينة حين لم يجدوا فى مكة نصرة يتغلبون بها ، وحين تنسموا نسيم هذه النصرة فى أهل المدينة .وحين رجع صلى الله عليه وسلم مع المسلمين إلى مكة معتمراً فصده كفارها ، ورأى بفطنته أن حرب هؤلاء يقتضى مزيداً من الإعداد والاستعداد لم يخاطر بنفسه ولا بالمسلمين على ما كانوا عليه من عقيدة وعزم يفلان الحديد وينحتان الصخر ؛ ولم يجد غضاضة أن يعقد مع الكفار صلحاً كانت شروطه تبدو مجحفة بالمسلمين حتى قال عمر

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٦٠ .

رضى الله عنه آنذاك : يا رسول الله ، ألسنا على حق ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟» . فلما أتم العدة وامتلك جماع القوة ، وأصبح من المنعة وعزة الجانب ما لا يخشى معه أعداءه ، وما وثق فى أنه سوف ينصره عليهم ؛ خرج إلى مكة فاتحاً حين نقضوا العهد معه . وكان له النصر المؤزر عليهم . ولسنا نريد أن نعد ونحصى فالأمثلة من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام أكثر من أن تعد وتحصى .

ومع مبدأ دوام الاستعداد فى وجه كل معتد أثيم وضع الإسلام لأهله مبادىء تفصيلية يلتزمون بها فيكونون دائماً على الخلق الرفيع ومع المنطق السليم والحق المبين ، وتجرى فى ركابهم العزة العزيزة . ومن هذه المبادىء .

أولا : عدم الاعتداء والبغى بقتال الناس من أجل أعراض الدنيا وطمعاً فيما يمتلكون من خيرات وأموال . أو من أجل السيادة وإخضاع المجتمعات الأخرى لسلطانهم ، فهذا شىء ينبغى أن يعف عنه المسلمون ، إذ الدنيا وما فيها عرض حائل لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت كذلك ما سقى الكافر منها شربة ماء . ومن ثم لا تستحق أن يقاتل الناس بعضهم بعضاً من أجل ما تغرى به من رياش وزينة وسلطان . وإنما الذى يستحق أن يقاتل المسلمون من أجله هو سبيل الله وحق الله على عباده وإعزاز دينه ونصرته ، ولكن بلا اعتداء على أحد بل ردا لاعتداء المعتدين ، والدفاع عن حرمات الدين والوطن ضد من يريد انتهاكها « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم »(١)« ... إلا الذين عاهدتم من المشركين فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . . . وإن نكثوا أيمانهم من

---

(١) سورة البقرة ، آيات ١٩٠ ، ١٩١ .

بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة »(١).

ثانياً : البعد عن أن تكون العقيدة الإسلامية فى حد ذاتها محركة لانفعالات الحرب ، سعياً وراء إجبار الناس على اعتناقها ، فالإسلام فى كل تشريعاته يخاطب الضمائر والعقول ودخيلة النفوس . وليس ينفع المسلمين مسلماً انتسب إليهم وهو لدينهم كاره أو غير مقتنع وراض به ، بل قد يكون على العكس من ذلك معول هدم وأداة تخريب ، كما كان حال المنافقين أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتاريخ يذخر بخبثهم ومكائدهم للمسلمين والإسلام مستترين وراء إسلامهم الكاذب . وفى هذا يقول القرآن الكريم فيهم : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة . وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم(٢) ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون(٣) » ، « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم »(٤).

ولعل فى قوله تعالى . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين(٥) » ، دعوة صريحة إلى نبذ القتال من أجل اعتناق الدين الإسلامى ، وإشارة واضحة إلى السبب فى ذلك ، فالأساس هو الدعوة المسالمة والحجة المقنعة والبصيرة والحذق فى الجدال وعرض الأفكار ؛ ذلك لأن الله وحده هو الذى يعلم ما تكن القلوب وما يقر فى النفس ، ولتسم أيها المسلمون على مستوى رب العزة فى المعرفة ، فإن حاربتم وأسلم الناس لكم كرهاً وخوفاً من قتالكم فمن

---

(١) سورة التوبة ، آيات ٩ — ١٥ .
(٢) أى للقتال .
(٣) سورة التوبة ، آية ٤٢ .
(٤) سورة التوبة ، آيات ٤٦ ، ٤٧ .
(٥) سورة النحل ، آية ١٢٥ .

الذى يطلعكم على قلوبهم ؛ ومن الذى يدريكم أنهم أسلموا فعلا ودخل الإيمان إلى قلوبهم ؟ وهل تأمنون شرهم إن هم انضموا إلى معسكركم وهم على هذه الحال من الدخل ؟ ولو كان اعتناق الإسلام من المبادىء التى شرع الله القتال من أجلها لكان المنافقون فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هم أولى الناس بالقتال ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد عراهم ، وأنبأ بما فى قلوبهم ، وأخبر عنهم بالآيات الكثيرة التى تفيض بها سورة التوبة وغيرها أنهم كانوا فى إسلامهم كاذبين ، ومن ثم استحقوا عند الله أشد العذاب : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا »(١) . ومن آيات التعرية للمنافقين قوله تعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا ، لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم(٢) » ، « إن تمسسك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون »(٣) ، ولو كان الأمر كذلك وشرع القتال لإجبار الناس على اعتناق الإسلام ما شرعت الجزية أخذاً من أهل البلاد المفتوحة إن هم رضوا بكفرهم ، ولما قبل منهم غير الإسلام . وانظر إلى قوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »(٤) . فلو كان السيف هو طريق الدعوة إلى الله لكان الظفر بالمشركين فرصة أى فرصة لإجبارهم على الإسلام ، ولكنه الإقناع والاقتناع ، ومن ثم كانت الدعوة إلى إسماعهم ما يدعو إليه الإسلام ، ثم بعد ذلك وفاء بعهد الجوار إلى أن يتم لهم الأمان بلا جوار .

وفى هذا السبيل أكد القرآن فى مواطن كثيرة أنه « لا إكراه فى الدين »(٥)

---

(١) سورة النساء ، آية ١٤٥ .
(٢) سورة التوبة ، آية ٩٤ .
(٣) سورة التوبة ، آية ٥٠ .
(٤) سورة التوبة ، آية ٦ .
(٥) سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم(١) » ، « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل»(٢) ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ »(٣) ، «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر»(٤) ، « إنما أنت منذر من يخشاها »(٥) « قل يأيها الكافرون . . . لكم دينكم ولى دين » (٦) . . . إلى غير ذلك من الآيات .

ثالثاً : الصدق والإخلاص فى القتال إذا وقع ، والحرص والحذر من مباغتة الأعداء ومكرهم ، وعدم الفرار من المعركة مهما كانت الظروف . « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة »(٧) . « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »(٨) . وفيه — والله أعلم — فوق مسايرة طبيعة القتال فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم — إشارة إلى حتمية التكاتف والتآزر والصدق فى ملاقاة الأعداء ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون و يقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »(٩) . « ومن يولهم يؤمئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم و بئس المصير »(١٠) ، « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون

---

(١) سورة الروم ، آية ٥٣ .
(٢) سورة يونس ، آية ١٠٨ .
(٣) سورة يونس ، آية ٩٩ .
(٤) سورة الغاشية ، آيات ٢١ ، ٢٢ .
(٥) سورة النازعات ، آية ٤٥ .
(٦) سورة الكافرون ، آيات ١ ، ٦ .
(٧) سورة التوبة ، آية ١٢٣ .
(٨) سورة الصف ، آية ٤ .
(٩) سورة التوبة ، آية ١١٣ .
(١٠) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة »(١) .

وليس القتال والصدق فيه فقط ولكن معه الاعتماد على الله فهو أهم أسباب النصر ،وعدم الغرور بمدى القوة ووفرة العتاد الحربى فذلك من أقوى دعائم الغلبة ؛ فإنه « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »(٢) ، وإنه « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (٣) »، « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين» (٤) ، « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ،ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور . يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ،وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ،ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط »(٥) .

رابعاً : الجنوح إلى السلام إذا مال جانب العدو إليه ؛فالهدف النهائى هو السلام والاطمئنان ، والانصراف إلى تعمير الأوطان ، والإقلاع عن التعرض للمسلمين بأذى أو اعتداء .وما دام هذا السلام قد جاء إليكم أيها المسلمون ساعياً فلا تردوه ،وما دمتم فى نظر أعدائكم وفى أنفسكم أقوياء فلا يحق لكم أن تخشوا السلام الذى هو غاية الغايات فى الإسلام حتى جعلت تحيته الدائمة « السلام ». وأما القتال فليس بغاية فى ذاته حتى تتشبثوا به وتصروا عليه وقد لاحت أمامكم بشائر السلام . ولأن السلام عنصر أصيل ومبدأ مطلوب

---

(١) سورة النساء ، آية ١٠٢ .
(٢) سورة الأنفال ، آية ١٠ .
(٣) سورة الأنفال ، آية ١٧ .
(٤) سورة التوبة ، آية ٢٥ .
(٥) سورة الأنفال آيات ٤٤ — ٤٧ .

ومحبوب فى دين الإسلام لم يدع الله تعالى إليه دعوة عارضة ، وإنما دعا إليه باستيثاق وتأكيد وإغراء بما يجعله راجح الكفة؛ فوصل الدعوة إليه بالتوكل على الله، وبعدم الخشية من خداع الأعداء لأن الله لهم بالمرصاد ، وناهيك بالله الذى ألف بين قلوب المسلمين ، وجعلهم على هذا المستوى من الإخلاص والتعاون والمحبة والاجتماع على النصرة فى الحق بعد ما كانوا من النفرة والشقاق إلى حد لا ينفع معه ما فى الأرض جميعاً لو أنه انفق على اقتلاعه من نفوسهم . وفى هذا يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم. يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين»(١).

خامساً : ثم هناك القواعد التفصيلية الأخرى والأحكام الخاصة التى وضعها الله للمسلمين كى يسايروها ويطبقوها فى قتالهم مع أعدائهم إذا وقع طبقا لهذا الأسلوب العام الذى سبق توضيحه ، والذى يخلو من العدوان والبغى ، ويفضل السلام إذا التزم به الجانب الآخر . ومن ذلك معاملة الأسرى ، والتصرف فى الفىء والغنائم وغير ذلك مما ينبغى ألا ندخل هنا فى الخوض فيه . ومرجع الحديث بإسهاب عنه هو الكتب المتخصصة فى علوم الدين الإسلامى ، والتفاسير الشارحة لآيات الله الحكيم المتعلقة بمثل هذه الأمور ، ثم الأحاديث النبوية الموضحة لأحكامها .

---

(٧) سورة الأنفال ، آيات ٦١ — ٦٤ .

النهضة الاقتصادية فى الاسلام :

ليس هناك ما هو أحرص على رفاهية الناس والارتفاع بمستواهم فى كل ناحية وعلى رأسها الناحية الاقتصادية من الإسلام ؛ وذلك أنه وضع نصب عينيه فى تشريعاته عزة المسلمين فى أوطانهم، ودوام قوتهم وتفوقها على أعدائهم . ولن يكون ذلك إلا فى مجتمع ناهض اقتصادياً ، مستقلا استقلالا حقيقيا بحيث لا تذله حاجة ضرورية إلى غيره من المجتمعات ، ولا تخضعه ضرورة اقتصادية ملحة لسلطانه ، ومن أجل ذلك وضع الإسلام للمسلمين من الأسس القويمة ما هو قدير على أن يجعلهم كذلك ، ويحقق اعتمادهم على أنفسهم ، ويجلب لهم السعادة ماديا وأدبياً .

وأول هذه الأسس أن جعل العمل قيمة كبرى فى حياتهم ؛ فرفع من شأنه وقدس مكانته بجعله قسيم الإيمان فى كل آية تذكر الإيمان فى القرآن الكريم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم. »(١) « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا. »(٢) « وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى. »(٣) « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون. »(٤) « ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ؛ فأولئك لهم الدرجات العلى. »(٥) « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً »(٦) « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض. »(٧) ولا شك أن الأعمال الصالحة التى تتحدث عنها هذه الآيات وأمثالها مما هو كثير جداً فى القرآن لا تقتصر على ما يرتبط بأمور الآخرة ، بل يدخل فيها كل عمل صالح فى أى شأن من شئون

---

(١) سورة يونس ، آية ٩ .
(٢) سورة الكهف ، آية ١٠٨ .
(٣) سورة الكهف ، آية ٩٠ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية ٩٢ .
(٥) سورة طه ، آية ٧٤ .
(٦) سورة القصص ، آية ٧٩ .
(٧) سورة ص ، آية ٢٨ .

الدنيا، بل عندى أن الجانبين لا يفترقان؛ إذ كل عمل يصلح شأناً من شئون الدنيا هو عمل للآخرة يجزى عليه عامله ثواباً عند الله. وانظر الى الآية الأخيرة التى تستنكر التسوية بين العمل الصالح و الإفساد فى الأرض فقد جعلت الإفساد بالأعمال فى الحياة الدنيا مقابل العمل الصالح مما يبعدنا عن قصر هذا الأخير على الجانب الروحى عن الأعمال. ومن هنا يمكن القول بأن المفسدين بأعمالهم من البشر أنماط كثيرة يجمعهم الضرر وعدم النفع المرتجى من وراء أعمالهم؛ فكل متهاون فيما نيط به من عمل ومسئولية مفسد، وكل من يسرق فنية غيره وهو غير أهل لها مفسد، وكل من يؤدى العمل كيفما اتفق و بلا إتقان مفسد، وكل من لا يلتزم بواجبات وظيفته الاجتماعية مفسد، وكل من يتلف أو ينهب مالا ليس له مفسد، وكل متواكل فى أداء ما كلفه وأجر عليه مفسد، وهكذا . . . وعلى الضد من ذلك يكون الإصلاح بالأعمال؛ تلك التى يرجى خيرها ونفعها للفرد والمجتمع؛ مما يكون جنى الثمرة، وافر الإنجاز، قوى الأثر فى الأخذ بيد المجتمع إلى مستويات من الرقى يلمع فى ثناياها المستوى الاقتصادى للفرد والجماعة. ولا يخفى أن الإفساد بالأعمال محبط لها، آكل لثمرتها، منبت للشوك والحنظل والجفاف والوبال، وهل من وراء ذلك يرتفع اقتصاد الناس وتترفه معيشتهم ؟ ! ! !

وفوق ارتباط العمل الصالح بالإيمان على النحو السابق فى الآيات الكريمة فقد خص الله تعالى هذا العمل الصالح بالتأكيد عليه منفرداً فى آيات أخرى كثيرة، فقال تعالى: « إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى »(١). « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون »(٢). « ولكل درجات مما عملوا »(٣). « وما الله بغافل عما تعملون »(٤)، « ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا »(٥)

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٩٥.
(٢) سورة الروم، آية ٤٤.
(٣) سورة الأحقاف، آية ١٩.
(٤) سورة البقرة، آية ٧٤.
(٥) سورة يونس، ٦١.

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »(١) ، « ونعم أجر العاملين »(٢) « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »(٣). « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم »(٤). « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(٥). « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٦) . إلى غير ذلك من الآيات التى تحث على العمل وتؤكد للإنسان قيمته فى حياته . وما أصرحها فى هذا الصدد من آية تلك التى تقول : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »(٧). فلا تواكل إذاً ولا تكاسل ولا تهاون ، بل الجد والاجتهاد والنصب والعرق بالعمل بحثاً عن الأرزاق والكسب الحلال ، « فلا يقعد العبد فى بيته ويقول : اللهم ارزقنى ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » . وإذا اتخذ الإنسان المسلم العمل بهذه الصورة مساراً له فى حياته فسوف يغنى ويثرى ويغنى بغناه ويثرى بثرائه مجتمعه .

والنبى صلى الله عليه وسلم يتابع مسيرة القرآن فيحث على العمل فى مواطن كثيرة ، ويضرب المثل بنفسه . وهذا ما يقوله عليه السلام فى تحبيذ العمل للقادرين عليه : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . وفى هذا المعنى ينهى صلى الله عليه وسلم رجلا عن السؤال — وهو قادر على العمل — حتى إنه باع عليه ما فى بيته مما لا يملك غيره كى يشترى له أداة تعينه على العمل وترك المسألة. والخلفاء الراشدون من بعده عليه السلام لم يتنحوا عن العمل على الرغم من

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٠٥.
(٢) سورة العنكبوت آية ٥٨.
(٣) سورة يونس ، آية ١٤ .
(٤) سورة يس ، آية ٣٥ .
(٥) سورة الملك ، آيات ١ ، ٢ .
(٦) سورة الكهف ، آية ٧ .
(٧) سورة الملك ، آية ١٥ .

مشاغلهم الكثيرة بأعباء الخلافة ، بل إن بعضهم أصر عليه فى وجه من كان يقترح عليه أن يترك العمل ويتفرغ لشئون المسلمين مقابل جعل يؤخذ من بيت مال المسلمين . ولنا فى هذا أسوة حسنة بأبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وليس العمل وحده هو المطلوب فى الإسلام وإنما الإخلاص فيه معه ، والاتقان والإحسان وبذل الجهد أن يكون على خير مستوى حتى يقف فى مجال الإنتاج والاقتصاد قيمة أى قيمة ، وحتى ينفع أساساً من أسس النهضة الاقتصادية المطلوبة فى الإسلام . فالعمل المستهتر الهازل العارى عن الجدية والصدق قلما يفيد صاحبه أو وطنه ، بل قد يضر بهما الضرر البليغ . ومن ثم فمن أجر على عمل عليه أن يرعى حق هذا العمل كفاء الأجر الذى يتقاضاه ، ومن تولى مسئولية من المسئوليات عليه أن يقوم عليها خير قيام ، وأن يحسن الوفاء بها أحسن ما يكون الوفاء ، وأكثر من هذا من كان يعمل لنفسه عليه أيضاً أن يحسن عمله وينجزه بأحسن صورة ممكنة ليكون مردوده مرضياً لا لشخصه فقط ولكن لمجتمعه كذلك حيث هو المستفيد فى نهاية المطاف من ثمرات الأعمال الفردية . فالصانع إذاً عليه أن يتقن صناعته لتروج فيربح ويربح وطنه معه ، والزارع عليه أن يكد ويعمل كل جهده كى يزيد إنتاج أرضه فيتسع له الرزق وتسهم غلته النامية فى سد حاجات الناس وترفيه حياتهم ، والمدرس — ومسئولياته فى مهنته كثيرة هو يعرفها — عليه أن يستجيب لنداء الضمير الحى فى تربية النشء والارتفاع إلى مستوى مسئولياته ، والمهندس والطبيب والخبير فى شأن من الشئون وكل إنسان مكلف بعمل أو بصدد أن ينجز لنفسه عملا عليه أن يحسن عمله هذا وينهض بمنيته . وكل من يعد العاملين للأعمال فى المجتمع أو يختارها الكفايات من الناس عليه أن يعطى القوس باريها ، وأن يطلق الهوى والوصولية وعدم الجدية ، وألا يجعل غير الكفاية معياراً ؛ وإلا فلن يكون محسناً عمله . وجماع هذا كله هو قوله تعالى « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »(١) ،

(١) سورة الكهف ، آية ٣٠ .

فأطلق معنى العمل ليشمل كل عمل صغيراً أو كبيراً ، عظيما أو حقيراً ، يدوياً أو عقلياً. ومن ثم يدخل فى معناه تلك المسئوليات التى أشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» . وفى معنى إتقان العمل والإخلاص فيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

إن كل إنسان لو أنه استجاب لقولة الإسلام فى صدد العمل الذى يريده من أهله ؛ فأتقن ما يعمله ، وأنجز فى صدق ، وتحمل مسئولياته بإخلاص ، وأعطى كل ما عنده ولم يبخل بشىء على كل ما يؤديه لنفسه أو لمجتمعه ؛ لبنى مجتمع المسلمين على أساس من الكفاية والرفاهية والكمال الاقتصادى بما يضمن للجميع السعادة والعيش الرغيد والاستقلال الحصين .

ومن الأسس التى ترفع من النهضة الاقتصادية للمسلمين ما شرعه لهم الإسلام من التعاون الخير ؛ حيث إنه — كما هو خلق فاضل — هو من أهم دعائم النهضة الاقتصادية ، بل إنه — والحق يقال — كان فضيلة إنسانية بما يحمل من تلك الآثار الطيبة المفيدة ؛ إذ لو فقد المجتمع فضيلة التعاون لهدم كل إنسان ما ينبيه غيره ، ولتفتت المجهودات فضاعت هباء ، ولصاغ كل فرد تفكيره وإنجازاته فى قالب شخصى يقضى على التماسك والقوة ، ويحط من العزة والهيبة الاجتماعية ، وحينئذ يفشل المسلمون وتذهب ريحهم ، ويضل سعيهم ، ويسهل على الأعداء ازدرادهم وابتلاعهم وإذلالهم . وفى هذا يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » (١) . وفى البر يدخل كل عمل فيه نفع وصلاح للفرد وللمجموع . ألست مثلا حين تخفض من استهلاكك وتزيد من مدخراتك متعاوناً مع الحكومة فى العمل على نهضة اقتصاد الوطن؟ ألست حين تحافظ على الأموال والممتلكات العامة متعاوناً مع المجموع فى توفير متطلبات

---

(١) سورة المائدة ، آية ٢ .

الحياة الميسرة لأفراد الأمة بلا إسراف؟ ألست حين تدفع ما عليك من استحقاقات مالية وغيرها قبل الدولة متعاوناً معها فى إقامة المشروعات النافعة وتوفير الخدمات المرفهة؟ ألست حين تساعد غيرك فى قضاء حاجاته وحل مشكلاته متعاوناً معه فى توفير وقته وإراحة نفسه، فينصرف راضياً إلى كل نافع من الأعمال، ويجنى الوطن من وراء ذلك خيراً. وتكون بذلك متعاوناً مع الوطن أيضاً وعاملا على زيادة نهضته الاقتصادية؟ وهكذا مما يتصل بكل أبعاد الحياة. ثم أليس ذلك كله براً بنفسك وأهلك ووطنك ؟ !

وهناك من الأعمال التى لا تجود بخيراتها ولا توافى بسهمها فى رفع اقتصاديات الوطن إلا إذا قامت على التعاون المكثف لحمة وسدى، فالمصانع الكبيرة والمشروعات الضخمة لا تؤتى ثمارها إلا إذا تكاتفت فيها الأيدى والعقول، فينشأ ناشئها ويصلب عودها بأصحاب الطول من الأموال، ويرتفع إنتاجها وتعظم غلتها ويعم خيرها بجهد المخلصين من أصحاب السواعد القوية، وفكر المفكرين من أصحاب الفنيات العلمية المختلفة؛ فمهندس يبنى، وباحث يطور ويخطط لمستقبل أفضل، وطبيب يعالج، ومدير يحكم الإدارة ويحسن تسيير الأمور. ولا يخفى ما يحتاج إليه معنى التعاون من إخلاص الجهود وصدقها وإلا كان مظهراً بلا مضمون وجسداً بلا روح. ومن هنا يتداخل معنى التعاون الحقيقى مع إحسان العمل، بل يواكبه ويعضده كثير من الأخلاقيات التى سبق الحديث عنها كى يحقق مفهومه ويرفع من بنية الاقتصاد القومى.

ولعل الزكاة من أهم المظاهر التى تحقق للتعاون معناه العظيم تشريعاً إسلامياً من أجل التكافل الاجتماعى بين الناس، وارتفاعاً بالمستوى الاقتصادى والترفيهى للأمة، ونهضة عامة للوطن. فالحاجات حين تسد يتجه الجميع إلى خير الجميع، وشيوع روح الإخاء بين الغنى والفقير — حين يشعر الأول بما يعانيه الثانى من أزمات الحياة فيجود عليه من ماله وغناه، وحين يشعر الثانى بعطف

الأول عليه والتفكير فيما يصلح شأنه — يشد من أزر المجتمع ، ويقوى من وحدته وتماسكه ، ويبدد الأحقاد ، ويأكل الحسد ، فينصرف كل فرد بأمان واطمئنان إلى البناء والتشييد ، ويتعاون بما يستطيع فى منع الهدم والتخريب ، وبذا تسمو البنية الاقتصادية للوطن ، وتتحقق السعادة لأفراده. ثم أليس من حصيلة الزكاة هذه ينشأ بيت مال المسلمين ؛ ذلك الذى يسد حاجة المحتاج ، ويفتح لطلاب الأعمال بمشروعاته باب الأرزاق ، ويوظف من أمواله — إذا هيمن عليه مخلصون — فى كل ما يعود بزيادة الدخل العام والخاص ، ويحسن من الظروف الاقتصادية وينهض بمستواها ؟ ! !

ولن تقوم نهضة اقتصادية فى بلد من بلاد العالم إلا إذا قامت على أساس من العلم والمعرفة . وما « التكنولوجيا » الحديثة التى تتميز بها الدول الصناعية فى عصرنا الحاضر وتنهض باقتصادياتها إلى أعلى المستويات ، بل تعد قوام التطور والتقدم فى كل مجالات الحياة الحديثة الناهضة ؛ إلا نتاج البحث والدراسة والعلم والتعليم . والإسلام لم يغفل هذه الدعامة الكبرى وهذا الأساس المتين من أسس النهضة الشاملة بعامة والنهضة الاقتصادية بخاصة ، بل وضع العلم فى مكانه المرموق من حياة المسلمين ، ودعا إليه دعوات صريحة وقوية ومتكررة فى كتابه المقدس ، وحبذ للناس كل الناس الاشتغال به كل بالقدر الذى يستطيع وبالمدى الذى هو مستعد له .

ولقد كانت أول آية نزلت من آيات القرآن الكريم تأكيداً للعماد الذى يرتكن عليه العلم ، ولا تنهض دراسة متعمقة مثمرة إلا به ، ولا يرتفع للمعرفة صرح إلا على عكازته ؛ ذلك هو القراءة والكتابة حيث يقول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ؛ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »(١) . وهل يعقل أن يدرس دارس فيصل إلى نظرية تحكم بعض مظاهر الحياة أو ينتهى إلى نتيجة تنهض بوجه

---

(١) سورة العلق ، آيات ١ — ٥ .

من وجوهها بدون أن يكون قارئاً ؟ . إن هذا الافتتاح العظيم للقرآن الكريم من رب العالمين تأكيد واضح لمكانة العلم وحث للناس أن يأخذوا بسبيله من طريقه المستقيم وإلا لن تتوسع لهم مداركه ولن تتفتح لهم عقول ولن يهتدوا إلى سنن هذا الكون العظيم مما يأخذ بأيديهم إلى كل نهضة — وعماد كل نهضة لا شك اقتصاد متحضر شامخ الأركان .

وقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(١) ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٢) ، دعوة كلها قوة إلى أن يرتفع صرح العلم بين الناس ليكون منهم العلماء الذين يخشون الله حق خشيته بما يعرفون عن الكون وبديع تنظيماته والقوانين التى تحكمه مما لا يستطيع بشر أن يسنها أو يشرعها . وليست الخشية فقط وإنما من وراء البحث والدراسة وكشف الحقائق يعمر الكون وتنهض مادياته ، وتخترع الاختراعات وتبتكر النظريات التى ترتفع بمستوى الوطن والأفراد مادياً وأدبياً ، ومن هنا يزدهر المستوى الاقتصادى لمجتمع المسلمين . وشىء آخر يأتى من وراء هذه الدعوة إلى خلق العلماء وهو تعليم غيرهم وتفقيههم بما علموا فيعلمون هم من علمهم ، ويخشون الله بخشيتهم مصداقاً لقوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »(٣) ، ومما لا ريب فيه أن هؤلاء العلماء إذا تعلموا دين الله كما ينبغى أن يتعلموه فسوف يرفعون عمن يعلمونهم غشاوة الجهل بما يوقنون به أن الله هو الحق وأن ما سواه هو الباطل لا بالكلام ولكن بما كشفوا من حقائق الكون وبما وصلوا إليه من قوانين على هديها تقوم الحياة السعيدة والعيش المرفه . وليس هذا فحسب ولكن يعلمونهم أن الدين الإسلامى يدعو عقولهم إلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، ويفتح أمامهم مجالات البحث والدراسة على مصاريعها فى كل

---

(١) سورة فاطر ، آية ٢٨ .
(٢) سورة الزمر ، آية ٩ .
(٣) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

مظهر من مظاهر هذه الحياة الدنيا ، فلا خوف إذاً من خوض بحار العلم الزاخر ، ولا مكان للتردد فى اقتحام حصون البحث والتجريب والنظر والتأمل تغذية لاستعداداتهم التى أودعها الله فيهم ، وسعياً وراء الكشف عن حقائق هذا الكون الملىء بالكثير من الجديد والعظيم من المدهشات التى تحضره لأهله وتدر عليهم الخير الوفير ، « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »(١) . « إن فى خلق السموات والأرض لآيات لأولى الباب »(٢) . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(٣) ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(٤) ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »(٥) ، « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون؟ »(٦) . كل هذه الآيات — وأمثالها كثير — إغراء للإنسان أن ينظر ويتأمل ويبحث ويدرس هذا الكون الذى يعيش فيه بكل مظاهره ، وهو لا شك فى دراسته وبحثه سيرتفع شأناً ويعلو قدراً ويسعد حالا ومالا ، وهل بغير البحث والدراسة تستخرج كنوز الأرض من المعادن والغازات مما يعد من مرتكزات النهضة الصناعية والاقتصادية ؟ وهل بغير النظر والدراسة تعرف طبائع التربة فى الأرض ، ومواقع الأجرام فى السموات ، ونفع وضرر ما خلق الله من حيوانات وطيور وحشرات وغير ذلك ، فتنتظم أمور الحياة ، ويتكيف الإنسان لها

---

(١) سورة يونس ، آية ١٠١ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ١٩٠ .
(٣) سورة البقرة ، آية ١٦٤ .
(٤) سورة فصلت ، آية ٥٣ .
(٥) سورة الغاشية ، آيات ١٧ — ٢٠ .
(٦) سورة الذاريات ، آية ٢١ .

بما يتوافر له من الإنتاج الزراعى والحيوانى ، ويقيه شر الأمراض ، ويقدره على إقامة المشروعات النافعة والصناعات المغنية ، ويفتح أمامه ينابيع الخير والبركة مالا وعمراناً ورفاهية وسعادة ، فتغنى أمته ويرتفع اقتصادها وكل شيء فيها ؟ .

وحتى لا ينقطع الإنسان عن البحث والدراسة وطلب العلم والمعرفة أخبره الله فى كتابه العزيز أنه مهما جد فى الدراسة وتعمق أسرار العلم وكشف من حقائق ونظريات فلن يستنزف علم هذا الكون أبداً ، ولن يصل فيه إلى غايته ، وإنما سيكشف الجديد تلو الجديد ، ويصل إلى ما لم يصل إليه من قبل ما دام جاداً فى طلب العلم ؛ مستجيباً لدعوة الله سبحانه وتعالى ألا ينقطع عن التأمل والبحث فى أسرار الكون إلى أن تموت الدنيا بما عليها ، « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »(١) وتأمل قول تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(٢) وقوله تعالى «وفوق كل ذى علم عليم»(٣) ، تجدهما ينطقان بوضوح أن شاطىء العلم لن يراه أحد مهما أجهد نفسه فى السباحة وطال به المقام غوصاً فى أعماقه(٤) .

التربية فى الإسلام :

الحديث عن التربية فى الإسلام ليس ببعيد عما يحقق العنصرين السابقين وهما القوة الدفاعية والنهضة الاقتصادية ؛ إذ إن هدف التربية فى الإسلام هو فى نهاية الأمر تكوين المسلم لبنة صالحة لبناء المجتمع الإسلامى على العزة والرفاهية ، ولن يجتمع له ذلك إلا إذا تربى تربية سليمة قوامها خدمة المصالح الحيوية لوطنه .

---

(١) سورة الرحمن ، آية ٢٧ .
(٢) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .
(٣) سورة يوسف ، آية ٧٦ .
(٤) ارجع فى تفصيل الكلام عن العلم والبحث عليه فى الاسلام ماكتبه المؤلف فى « فى التربية » ادارة الطبع والنشر بجامعة قار يونس بليبيا ، ١٩٧٦ .

ومن ثم كان التشريع التربوى فى الإسلام يعم البيت والمدرسة والمجتمع الكبير ، فوضع من الأسس التربوية ما يلتزم به الفرد فى منزله وفى سلوكه مع أبناء وطنه ثم حين يتعلم فى مكان خاص بالتعليم كالمدرسة . ولقد ضربنا فيما سبق العديد من الأمثلة الأخلاقية والسلوكية والتعامل الاجتماعى ما هو وأمثاله من التشريعات الإسلامية كفيل بتقويم شخصية الإنسان المسلم وتشكيله بالصورة التى تحقق الهدف التربوى العام أكمل تحقق(١). وفوق ذلك لم يغفل الناحية التعليمية الخاصة فى المدارس — وكانت فى بداية أمرها مجالس الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ثم مجالس الخلفاء من بعده ، بجانب المساجد والأروقة وغيرها قبل أن تنظم المدرسة بشكلها الراهن .

ولسنا ندعى أن الإسلام بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم قد حدد الحدود الضيقة للتعليم الرسمى الذى يريده لأبنائه ولكنه أكد اتجاهات واستن سنناً ووضح معالم الطريق لمن يريد أن يطور ويستحدث وينظم فى ظل من هذه الاتجاهات والسنن والمعالم .

ولقد وضحنا سلفاً أن الإسلام قد حث على تعلم القراءة والكتابة وهما عماد التعليم وأداة العلماء ، كما دعا الناس إلى التفقه فى الدين وهو — بجانب تنظيمه الصلة بين العبد وربه — داعية إلى البحث والدراسة والنظر والتأمل المؤدية إلى الابتكارات والاختراعات واستحداث القوانين التى تنظم شئون الحياة وترتقى بمرافقها . ولقد حبذ للناس العلم والانخراط فى سلك العلماء بصورة مباشرة حتى لا تجمد حياة المسلمين ويتأخروا — إنهم أدركوا مرامى دينهم — عن ركب الحضارة والمتحضرين فيسايروا تطورات العصر كلما خطا الزمن خطواته إلى الأمام .

ومن ثنايا مانقرأ فى القرآن الكريم ونعرف من سنة النبى صلى الله عليه وسلم ومن سير الخلفاء والعلماء المسلمين نجد الكثير من الأمور التربوية التى لم

---

(١) ارجع الى ماكتب في الصفحات السابقة تحت عنوان « وظائف الدين الاسلامى للفرد والجماعة . »

تستبين معالمها إلا بعد أن سبق إليها غير المسلمين ، ولو أن المسلمين وعوا أمر دينهم وقرآنهم وسنة نبيهم لكانوا هم السابقين إلى كثير جداً مما سبقوا هم به .

فمثلا كان المسجد فى الإسلام جامعة مفتوحة يقصدها الصغير والكبير والمرأة والرجل ؛ كل يأخذ من إمامه ما هو بحاجة إليه فى أمر الدين وأمر الدنيا معاً على قدر ما كان يفهم هذا الإمام دينه فى العصر الذى يعيش فيه . فكنت تجد فيه جميع المستويات الطالبة للمعرفة من ذكر وأنثى ؛ كلها تريد أن تتعلم وتستقى من نبع الإسلام الذى لم يغفل إطلاقاً تنظيم حياة الناس فى هذه الدنيا ، كما وضحنا قبل وكما نشير بعد ذلك . بل لقد كانت أبسط البسائط وأخطر المسائل تقضى فى المسجد ، فكنت تجده مكاناً لتجييش الجيوش وتنظيم أمر الحروب والغزوات واستقبال السفراء والعظماء والرسل من كل مكان ، وكنت تجده أيضاً مدرسة للصغار يدرسون فيها دراسات منظمة ويتعلمون فيها مواد تعليمية بعينها ضمها منهجهم الذى رتب لهم فى عصور الإسلام المتتابعة طبقاً لمفاهيم أهل هذه العصور عن مناهج الدراسة والتعليم . ألم يكن هذا الاتجاه خليقاً أن يتطور على أيدى المسلمين — إذا وعوا — إلى فكرة المدرسة الشاملة والجامعة المفتوحة مما نسمع عنه فى الآونات الأخيرة ؟ ! ! !

ومن الاتجاهات التربوية الجديرة بالاهتمام أن الإسلام لم يجعل للتعلم والتعليم زمناً ينتهيان إليه ، بل جعل الحياة كلها وعاء لهما . ومن ثم دعا الإنسان إلى أن يتعلم وألا ينقطع عن التعلم إلا إذا فارق الحياة ، وهذا هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم واضح كل الوضوح فى هذه الدعوة « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » ، وآيات القرآن الكريم المغرية بالنظر فى الكون والبحث والدراسة وتعمق أسرار المظاهر الطبيعية لا تترك للإنسان فرصة الهدوء عن الكسب المعرفى يوماً أو ساعة ؛ إذ هو مطالب أن يستجيب لها فى كل حين وأن يتمثل مدلولاتها عملا وتنفيذاً كلما واتته قدراته وسمحت ظروفه واستعداداته وطاوعته مواهبه التى

هيئت له إنساناً من الله جل علاه . فقوله تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »(١) ، ونظائرها من الآيات مثلا ليس طلباً وقتياً ينتهى بزمن معين من حياة فرد أو آخر ، وإنما هو طلب دائم الصدق والتوجيه لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم ومقدراتهم وفى كل الأزمان ، كما أنه ليس طلباً للنظر العابر من كل إنسان وتحت كل الظروف وإنما هو طلب النظر الواعى المتأمل بما يتعادل مع ما يحمل الناظر بين جنبيه من كفاية ومقدرة فهمية خاصة . ومن ثم فالفرد العادى ذو الثقافة المحدودة والعلم المتواضع ينظر نظرة الإعجاب والتفكر الدائمين إلى هذا الخلق العظيم فيستشعر عظمة خالقه ومبدعه ، ويتمثل فيه سلطانه القوى وغلبته وجبروته ، والعالم المطلعة والباحث المدقق ينظر إليه فيرى فيه مادة ثرية للدراسة واستكناه القوانين والنظريات التى يسير عليها فيبادر بإعمال عقله وتوظيف مواهبه وملكاته البحثية دارساً منقباً من أجل الكشف عن هذه النظريات وتلك القوانين فيعرف مسارات هذا الكون ويوظفها لخيره وسعادته ، ورفاهة عيشه فى دنياه سواء أكان ذلك فى مجال العلوم الطبيعية أو الطبية أو الاجتماعية أو غيرها . وحين يعرف ويوقن يزداد إيماناً بعظمة الخالق جل وعلا ، ويرتد خاشعاً كأكمل ما تكون الخشية لله خاضعاً لربه لا تطاوعه جوارحه أن يقع فى معصية تغضبه ، وصدق الله حين يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(٢) . وبطبيعة الحال ليس يصدق عليه أنه استجاب لنداء ربه بالنظر إذا فتر — وهو قادر — عن الدراسة المسلمة للخشية حيناً من زمان عمره الذى يحياه .

وقوله تعالى . « وفوق كل ذى علم عليم »(٣) ، ثم قوله أيضاً : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(٤) ، إغراء دافع لكل ذى عقل وفكر ومقدرة معينة من المسلمين أن يجد ما وسعه الجد ويدرس ما مكنته الدراسة ليحصل على مقام أعلى فى العلم ،

---

(١) سورة يونس ، آية ١٠١ .
(٢) سورة فاطر ، آية ٢٨ .
(٣) سورة يوسف ، آية ٧٦ .
(٤) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .

ويستزيد من القليل الذى أعطى للبشر أجمعين ، وهو — وقد آمن بالقرآن كتاباً منزلا لا عوج فيه — كلما وصل إلى مرتبة علمية فوقه عليم ، وكلما نال حظاً من معرفة أو كشف عن حقيقة أووصل إلى جديد مبتكر فإنما ذلك قطرة من بحر زاخر وما زال ينتظره الكثير والكثير جداً من قليل علم الناس ، وحينئذ فالإغراء الدافع له كى يعلم علماً جديداً ويصل إلى حقائق لم تكن ؛ قائم لا ينقطع إلا بانقطاع الحياة. يصدق هذا لاشك على الإنسانية بجملتها وبما تزخر به من عقول جبارة وإمكانات تقنية هائلة تموج بها الحياة على مدى الأجيال المتلاحقة إلى يوم القيامة ؛ إذ القرآن معجزة باقية الإعجاز وآياته صادقة الدلالة فى كل وقت وفى كل مكان إلى يوم يبعثون ، فالفرد إلى أن يموت يعلوه عليم مهما سما علمه ولم يحصل إلا قليلا مهما كثرت معارفه ، وجميع الناس إلى أن تقوم القيامة فوق ما علموا عليم مهما طوفوا وارتفعوا علماً وإدراكاً ، وهم بما فاض لهم من علم وضاقت به رحاب المعمورة لم ينالوا إلا قليلا .

أليس هذا وما يجرى فى مجراه مما تدل عليه آيات القرآن الكثيرة والأحاديث النبوية العديدة من مثل : « تعلموا العلم من المهد إلى اللحد » كان خليقاً بالمسلم الواعى لأمر دينه أن يقول بفكرة « التربية مدى الحياة » فيسبق السابقين ؟ !

ولقد وضع الإسلام فى تربيته العامة والخاصة نظاماً مثالياً للثواب والعقاب فى المواقف التربوية أشارت إليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وفصله علماء المسلمين الأوائل من أمثال الغزالى وغيره استهداءً بما فهموا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهو نظام إن عرضته على علم النفس الحديث لم تجده يعارضه أو يناقضه ، وإن طبقته فى المواقف التربوية نجحت وأفلحت وتوافقت مع أحدث الاتجاهات التربوية(١) . أليس يعنى هذا أن الإسلام فى تربته كان سابقاً وإن كان المسلمون لم يكونوا مثله سابقين ؟ ! !

وهناك من الأسس السليمة والاتجاهات التربوية القويمة فى الإسلام

---

(١) ارجع فى تفصيل القول فى هذا الموضوع وفى بعض الاتجاهات الحديثة فى الاسلام الى : حسين سليمان قورة : فى التربية ، مرجع سابق .

ما لا نستطيع الخوض فى تعداده ؛ إذ لسنا بصدد تحقيق هذا الغرض . وتكفينا الإشارات السابقة لنقرر أن هذه المبادىء والاتجاهات التربوية وأمثالها فى الإسلام حرية أن تبنى مجتمع المسلمين ناهضاً قوياً يضمن لأعضائه أن يعيشوا فيه أعزة غالبين .

تحرير الفكر الإنسانى

ليس هناك دين قد حرر العقول الإنسانية وفتح أمامها طريقاً بلا نهاية إلى التفكير والتأمل والابتكار والاختراع مثل ما فعل الدين الإسلامى . فكل تشريعاته مسايرة للعقل والمنطق ، وليس فيه من شىء يحرم على النقاش والتعليل اللهم إلا القليل النادر الذى شرع فيما يبدو لاختبار قياد المرء لأوامر ربه ؛ ومع ذلك تطرق إليه تعليل العلماء ، ولم يغلق باب العقل إلى الجدال حوله بصورة قاطعة .

ومن ناحية أخرى لم يجعل الإسلام وساطة بين العبد وربه بحيث تتحكم فى تفكيره إن أراد أن يفكر فى أمور الدين كى تبقى له السلطة الدينية المطلقة كما كان الحال فى بعض الأديان فترة من الزمن عبر التاريخ ، وليس هناك من قوة تمنع المسلم أن يبحث ويدرس . وقد دعا القرآن بآياته الكثيرة إلى البحث والدراسة والعلم والمعرفة من غير حدود ، فأغرى الناس أن يتعلموا مالا يصح بحث وعلم إلا به وهو القراءة والكتابة بأول آية افتتحت بها رسالة النبى صلى الله عليه وسلم . بل جعل الإسلام العلم سبيلا إلى الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى ، إذ به يقف الإنسان على القليل العظيم من جوانب الجلال والكمال فى أسرار الكون ونواميسه التى أبدعها خالقه وحكمها فى مساره . ولست أريد فى هذا الصدد أن أكرر آيات كثيرة سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن « نشأة الدين وتطوره » و « نهضة المجتمع وقوة بنائه » ، ولكن أريد أن أذكر هنا بآيتين اثنتين : الأولى قوله جل وعلا : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى

أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(١) ، فلن تتم هذه الرؤية لبنى الإنسان بعلم لدنى أو وحى يوحى حيث قد توقف ذلك منذ زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، بل يتم ذلك بلا شك عندى بالبحث والكشف عن القوانين التى تحكم الظواهر الكونية وتعمل عملها فى كل قطاعات الحياة ، فالآية إذاً دعوة مؤكدة إلى إعمال العقل وتحرير الفكر من كل قيد . والثانية قوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(٢) ، فهى تأكيد مؤكد لمحاولة الوصول إلى خشية الله حقيقة وبإكبار وإعظام عن طريق العلم والكشف عن مجاهل الكون بالدراسة والبحث ، وليس ذلك إلا فتحاً من الإسلام عظيما أمام العقول البشرية كيلاتقف عند حد محدود من العلم والمعرفة والدرس والتنقيب عن سر عظمة الخالق فيما خلق وإبداعه فيما أبدع ليزداد أصحابها خشية من الله وليرتفعوا بخشيتهم إلى مراقى الفلاح .

ولا أدل على تحرير الإسلام للفكر الإنسانى من دعوته إلى الاجتهاد فى الدين ، ومن إقراره لمبدأ القياس وهو قائم على التفكير والمنطق . وفى حديث معاذ بن جبل حين أوفده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن معلماً ما يؤكد هذا المعنى ؛ فقد اختبر فطنته الدينية وامتدح إجابته حين سأله عن المسألة تعرض له فلا يجد لها حلا فى كتاب الله وسنة رسوله فأجاب : أجتهد فيها بالرأى والقياس على ما جاء فى كتاب الله أو سنة رسوله . وبهذا الاتجاه الإسلامى اختلف علماء المسلمين فى بعض أحكام الدين الإسلامى فرأى كل رأيه على قدر ما فهم ، ولم يكن فى ذلك غضاضة ولا عيب ، ولم يعترض عليه معترض من المسلمين . وما زالت آراء هؤلاء العلماء تدرس وتعلم فى مدارس البلاد الإسلامية ومعاهدها ، ومن هذه الآراء ما يتصل ببعض القضايا الدينية الكبرى كأفعال العباد ، وتأويل بعض آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم »(٣) ، وقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »(٤) . وغير ذلك كثير .

---

(١) سورة فصلت ، آية ٥٣ .
(٢) سورة فاطر ، آية ٢٨ .
(٣) سورة الفتح ، آية ١٠ .
(٤) سورة طه ، آية ٥ .

وجملة القول أن الإسلام لا يعارض العقل أن يفيض بأفكاره ، بل إنه يدعوه ويغريه بهذا الفيضان كى يرتفع صرح العلم ويتطور فيرتفع بارتفاعه صرح الإيمان بالله وتشتد الخشية من جلاله وجبروته . أليس « تحرير الفكر الإنسانى » بهذا وظيفة هامة من وظائف الدين الإسلامى ، به تستقيم عمارة الكون التى أرادها الله سبحانه وتعالى بجعل الإنسان خليفة فى الأرض ؛ قال تعالى : « هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »(١) ، وقال : « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »(٢) .

على أن الله سبحانه وتعالى فتح للناس فى الإسلام باب الأخذ بالحجة والدليل العقلى فى الأمور الدينية ، فقال تعالى فى معرض إثبات الوحدانية له جلت قدرته : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »(٣) ، وقال : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لا تبغوا إلى ذى العرش سبيلا »(٤) ، « إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض »(٥) . إن هذه الآيات وأمثالها تقوم على النقاش المنطقى وإظهار الحجة العقلية الدامغة بأن الله واحد لا شريك له . ألسنا نقول حديثاً عابراً نطلقه قضية ذات مفهوم لا يحتمل الجدل عقلا : « المركب اللى فيها ريسين تغرق » . وإذا كان العربى القديم قد قال حقاً لا مراء للعقل فيه قبل أن يهديه هاد « الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير ، ألا يدل ذلك(٦) على اللطيف الخبير ؟ » ؛ إذا كان هذا هو قول العربى على الفطرة فإن القرآن قد ساير منطقه بالآيات الكثيرة التى تثبت وجود الله لا اعتماداً على خوارق العادات وإنما بالبرهان العقلى ومناقشة تفكير الإنسان مناقشة منطقية ، فقال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم »(٧) ،

---

(١) سورة هود ، آية ٦١ .
(٢) سورة يونس ، آية ١٤ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية ٢٢ .
(٤) سورة الاسراء ، آية ٤٢ .
(٥) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .
(٦) يقصد الكون وما فيه من بدائع .
(٧) سورة الذاريات ، آية ٢٠ .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » (١) ، « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يوقنون »(٢) ، « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض (٣) ، « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين »(٤) ، وفى صدد التدليل على قدرته تعالى على البعث يقول الله جل وعلا : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم» (٥) وفى معرض إثبات أن القرآن الكريم من عند الله لا من قول محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ؛ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين»(٦). أليست هذه الآيات — وأمثالها فى القرآن الكريم كثير — تناقش العقل والمنطق فى الإنسان، وتدعوه أن يؤدى دوره فى الفهم وسلامة التفكير ، وعدم تعطيل عقله أن يكون كما خلقه الله من أجله بغض النظر عن أى شىء آخر ؟

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرر العقول والأفهام كى تمارس واجباتها بلا قيود فى هذه الحياة بمثل تلك الآيات المتعلقة بأخص الخصائص الإلهية وهى وجود الله ووحدانيته وقدرته على بعث الإنسان وكون القرآن الكريم كلام الله ؛

---

(١) سورة يس ، آية ٣٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية ١٦٤ .
(٣) سورة سبأ ، آية ٩ .
(٤) سورة الجاثية ، آية ٣ .
(٥) سورة يس ، آيات ٧٨ — ٨١ .
(٦) سورة النحل ، آية ١٠٣ .

فلا عليها أن تمارس ذلك فيما عداها من القضايا دينية أو دنيوية .

وفى النهاية أليس العقل مخلوق الله ؟ ثم أليست وظيفته الوحيدة هى التفكير ؟ فكيف إذاً يعقل أن تسلب منه وظيفته ويبقى معطلا وكأنه خلق فى الناس عبثاً ؟ . والله يقول : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين »(١) ؟ ! !

الدين فى المنهج الدراسى

كانت للدين الإسلامى مكانة كبرى يوم كان للمسلمين صولة وجولة وخلق إسلامى أصيل . ولقد كانوا باسم سماحة الإسلام وعدالة أهله يفتحون البلاد فيرحب بهم أهلها تخلصاً من ظلم حكامهم وعنت الحياة التى يلاقون على أيديهم . وظلت الحال هكذا ردحاً من الزمن سعد فيه المسلمون بإسلامهم ، وشغفوا وشغف الناس حولهم بتعاليمه ، فدخلوا فيه أفواجاً ، وتعلموا اللغة العربية من أجل أن يتعلموا قواعده وأصوله وعلومه ، بل ويبرعوا فيها بما لم يبرع مثلهم كثير من أوائل المسلمين ، حتى ازدهرت على أيديهم وأيدى أمثالهم دراسة علوم الدين فى عهود الإسلام الأولى ، وانتشرت مدارسها شرقاً وغرباً .

ثم كان وقت نزل فيه المسلمون على سنة التطور فهانوا على أنفسهم ، وتقلص سلطانهم ، وطمع فيهم غيرهم فتغلبوا عليهم بما فرطوا فى أمـــور دينهم ، وغفلوا أو تغافلوا عما يأمرهم به وينهاهم عنه ، وكان من الطبيعى أن يهون الإسلام بهونهم ، وتصغر مكانته فى الناس ، وتزول هيبته من النفوس ، وتتقلص دراسة علومه داخل المناهج الدراسية التى تقدم للمتعلمين . ولقد ساعد على هذا احتلال غالبية الأوطان الإسلامية — إن لم يكن جميعها — بالأجانب من غير المسلمين ؛ حيث تعصبوا ضد الإسلام — وإن أخفوا ما بأنفسهم — وحاولوا

---

(١) ســورة الانبياء ، آيات ١٥ ، ١٦ .

بشتى الطرق الملتوية والصريحة أن يضعفوا من هيبة الإسلام وقدسيته فى بلاد المسلمين التى يحتلونها .وما كان لهم إلا أن يفعلوا ذلك كى يحفظوا عليهم مكاسبهم من احتلال أرض المسلمين ؛لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامى إن ظل متمكناً فى النفوس المسلمة اهتزت عروشهم ،وأفل نجمهم بحكم دعوته المسلمين إلى الحفاظ على عزتهم وكرامتهم وعدم الخضوع إلا لله عز وجل ، وإن ضعف أثره وزال سلطانه ماتت فيهم جذوة الحماسة للتفور من المستعمر ومقاومته، واستمرءوا عيش الذلة والمهانة فى كنفه .

وكان من أساليب المستعمر فى هذا الصدد أن خصصوا فى بعض البلاد المحتلة على الأقل مدارس بعينها لدراسة القرآن الكريم وعلوم الدين مع بعض المناهج الهزيلة ،ثم انكمءوا يصرفون الناس عنها بإغفالهم — وهم الواهبون — شئون تلك المدارس ومتطلبات الدراسة فيها ، مع تركيز الاهتمام الأكبر والإغداق السخى على مدارس أخرى أنشئت فى كنف الدولة تغفل أمر الدين وتساير فلك المستعمرين . ولقد كان لهم ما أرادوا فى بعض البلاد المحتلة وبعض ما أرادوا على الأقل فى بعضها الآخر ، وكان من الطبيعى — نتيجة هذه السياسة — أن خبا شعاع الإسلام فى نفوس المسلمين ، بل ونفر أهله من دراسة علومه إلا قليلا منهم ،واحتلت التربية الإسلامية فى منهج المتعلمين أدنى المستويات زمناً وفاعلية حتى بعد أن مسها يد الإصلاح بانحسار نفوذ المستعمرين عن أوطان المسلمين ، بل لقد وصل سوء الحال أن دعا بعض الناس إلى عزل دراسة علوم الدين عن المناهج المدرسية جرياً وراء ما يحدث فى بعض البلاد الغربية كأمريكا مثلا ، واعتبرها البعض هامشاً دراسياً لا لزوم له ، وإن ضمها المنهج فلا تستحق الاهتمام والعناية .ولذلك كانت تعتورها التقلبات فى تفكير المسئولين عن التربية والتعليم ؛ فتارة تخصص للتحصيل فى مجالها درجات تقديرية لا تضم إلى المجموع الكلى للمتعلم حتى لا يتأثر رسوبه أو نجاحه بها ، وتارة أخرى — عند ما اعترض المعترضون — تخصص له درجات

تؤثر فى النجاح أو الرسوب ، ولكنها تجبر — إن أدت إلى الرسوب — بدرجات النجاح فى بعض المواد الأخرى . وهكذا ظلت الحال على هذا المنوال تأرجحاً واضطراباً فى شأن المناهج الدينية بالمدارس .

على أن هناك شيئاً ينبغى ألا نغفله فيما جرى وما زال يجرى فى دراسة الدين وعلومه حتى فى بعض البلاد القليلة التى اهتمت بها وأولتها بعض العناية ؛ ذلك أن هذه الدراسة تسير نمطية تقليدية لا تطور فيها ولا تفكير فى تطويرها ، فقواعد الدين تحفظ وتسمع ، وآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية تقرأ بلاحذق ولا فهم ولا ارتباط بما تعنيه فى علوم الدين الأخرى . أما الناحية التطبيقية ، وأما ارتباط الدين بالحياة التى يعيشها المسلم ، وأما الفهم الخالى من التنطع والتعصب فلا شأن للمتعلم أو المعلم بها ؛ مما أشعر الناس أن تعاليم الإسلام فى جفاء شديد مع المجتمعات العصرية وحاجاتها الملحة ومستلزمات العيش فيها ، ومما نفر المتعلمين من الدين ونشأهم على معاداته وعدم الالتزام بإقامة شعائره وانتهاج سننه ، ومما ساعد دعاة الشيوعية وغيرها فى دعاواهم الباطلة بأن الدين تواكل وانصراف عن العمل الجاد ، وإهدار لمجهودات الناس فيما لا طائل من ورائه ، وإن الإسلام من كل ذلك — يعلم الله — براء .

وعلى الرغم مما يعانيه الإسلام من أهله ، وما يلاقيه من عنت على أيديهم ؛ فما زالت هناك صيحات حق تنادى بدراسته دراسة واعية متطورة ، فيها تفهم حقيقى لروحه وجوهره ، وتطبيق عصرى لتعاليمه ، وعناية ظاهرة بعلومه بين المناهج المدرسية . وفى الآونة الأخيرة وبعد التقاء الرئيس السادات برجال الدين فى جمهورية مصر العربية تقرر أن تكون دراسة الدين دراسة إجبارية ضمن مناهج التعليم فى مختلف المراحل الدراسية ، وأن تكون بحيث تؤدى إلى تكوين المواطن المؤمن بحق ، البعيد عن مواطن الزلق ، الحريص على الالتزام بالخلق الذى يدعو إليه جوهر الدين ، وأن تكون تلك الدراسة على قدم المساواة مع دراسة العلوم الأخرى التى تتضمنها المناهج الدراسية عناية وتقويما .

ونحن فى معرض الحديث عن الدين الإسلامى هنا نقول : إن نظرة عاجلة إلى جداول الدراسة السابقة(١) ، ترينا أن التربية الدينية أصبحت فيها ذات كيان ما من حيث الزمن المخصص لها ، والذى يكاد يلحق بالزمن المخصص لبعض المواد الأخرى كالرياضيات والعلوم ، ويتساوى مع الزمن المخصص لبعضها الآخر كالمواد الاجتماعية والتربية الموسيقية ، ولكنها من حيث النوعيه والفاعلية تكاد لا تجد لها صدى فى نفوس المتعلمين ؛ وإلا فأين تصرفات الشباب المسلم التى نراها من خلق الإسلام المهذب وآدابه العالية ؟ ! أين فى تصرفاته ما دعا إليه الدين الإسلامى من الإيثار ، والسماحة ، والعفو عند المقدرة ، وأدب الحديث ، وأدب الزيارة ، والتراحم ، ومشاركة المواطنين فى السراء والضراء ، والتعاون على الخير وفى سبيله ، وعدم أكل أموال الناس بالباطل ، والحرص على النظام والنظافة ، وإحسان الأعمال ، وعدم الإسراف فى الإنفاق ، والتضحية فى سبيل أداء الواجبات ، وحب الخير للناس ، ونبذ الحقد والحسد ، والتواضع ، وقول الحق والتعصب له فى وجه الطاغية المتجبر قبل غيره من الناس ، وحرية الرأى والفكر ، ورد الأمانات إلى أهلها ، وإصلاح ذات البين ، والعدل بين المتخاصمين ، والبعد عن الشتائم والرذائل وإساءة الناس بما يكرهون كتلقيبهم بألقاب السوء وإفساد ما بينهم بالنميمة ، والبعد عن النفاق والتزلف المزرى للرئيس والمرءوس ، والكثير جداً من مثل هذه الأخلاق السامية التى تهدى إليها الفطرة الإنسانية السليمة ، والتى لا نستطيع لها عدا ؟

أين فى تصرفات الشباب صدى الصلة الحقيقية بينه وبين ربه متمثلة فى أداء شعائر الإسلام بأمانة وإخلاص مما يربى فيه الضمير الحى الذى يراقب الله فى السر والعلن ، ويحاسب النفس قبل أن يحاسبها محاسب آخر ؛ ومن ثم يضرب بالقوانين الوضعية عرض الحائط لأن هناك رقيباً أقوى من تلك القوانين ،

---

(١) ارجع الى تلك الجداول ص من ٤٨ — ٥٩ م

وله عليه السلطان الأكبر ، فتختفى الأعاجيب المشبوهة والحيل الملتوية على القانون ، وتنعدم بين الناس الأباطيل والأكاذيب والأحابيل ، وتموت الشرور والآثام ، ويسلم الوطن من مورد الهلكة والدمار ؟

أين فيما يقول الشباب ويفعل روح الدين الإسلامى الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويرسى مفاهيم التعامل بين الناس على أسس قوية لا عوج فيها ؟ بل أين الكثير والكثير جداً الذى نفتقده فى المسلمين — ولن يأخذ بيدهم سواه من وهدة التأخر والجمود ، ويضعهم حيث مكانتهم الأولى قمة فى الناس ، وعلية فى الأقوام ، وعملاقاً بين الأقزام ، ومهابة متحركة ، وعلماً وفناً ، وقوة يحسب لها ألف حساب ؟ ! !

ونحن لا ننكر أنه حين تؤلف توجيهات المناهج لتوزع على المدارس كى يسترشد بها المعلمون فى تدريسهم لا ينقصها الكثير مما ينبغى أن يقال ، ولكننا لا ننكر من ناحية أخرى أن هذه المؤلفات لا صدى لها فى التطبيق العملى ، بل قد لا يراها ولا يقرؤها المعلمون ، وتظل حبراً على ورق لا يسمع لها صوت فى مواقف التدريس . ويرجع ذلك لبعض الأسباب التى نذكر منها ما يلى :

١ — كثير من مدرسى الدين غير أكفاء لأن يتحملوا أمانة تدريسه ؛ إذ لا يستطيعون ترجمة ما ألف لهم قولا إلى مواقف تطبيقية ؛ وذلك لأن إعدادهم فيه من النقص العلمى والفنى ما يكفى لأن يصرفهم عن تنفيذ مالا يستطيعون .

٢ — متابعة الموجهين فى هذا المجال لا تتعدى الناحية النظرية ؛ فلا يلتفتون إلى سلوك من معلم أو من متعلم ، ولا يحاولون الالتقاء فى توجيههم وتقويمهم بجوهر ما كتب من توجيهات — وقد يكونون هم الذين ألفوه وكتبوه — وكأن الأمر كله كلام فى كلام .

٣ — الإمكانات المادية للمدارس لا تساعد على إحسان الإنجاز فى مجال دراسة الدين ؛ فلا وسائل معينة ، ولا حتى مكان لإقامة الشعائر ، وإن وجد

المكان فإنه يبقى طول يومه ينعى قلة الداخلين إليه وربما انعدامهم ؛ لأن جدول الدراسة فى المدرسة لا يترك فراغاً لمزاولة مثل هذه الشعائر الدينية .

٤ — النظرة الاجتماعية للدين ما زالت فى أدنى مستوياتها ؛ فالناس يصرفونه إلى النواحى الروحية التى قلما يعنون بها ، ولا يجدون من يبصرهم بأن الإسلام هو للدنيا كما هو للدين ، وأنه نهج إن انتهجوه نجحوا فى دنياهم كما ينجحون فى أخراهم .

ومن هنا نجد الأمر طبيعياً فى انصراف مدرس الدين عن متابعة توجيهات المناهج . ولو كان كل ما يقال ينفذ فعلا لكانت الحال غير الحال ؛ ولأنتجت دراسة الدين نتائج مختلفة عما نراه اليوم واقعاً مراً . واقرأ — إن شئت — هذه التوجيهات لتجد فيها من حلو الكلام كثيراً ؛ وذلك على غرار ما نقلناه من كتب الوزارة عن توجيهات المناهج فيما يختص بتدريس اللغة العربية (١) .

وإذاً فدراسة الدين الإسلامى فى حاجة ماسة إلى الإصلاح كى يرد للإسلام اعتباره اللذى ذوى ، ويسمو بالمتعلم اليوم كما سما به بالأمس ، وينفتح طريق الخير واسعاً أمام من يطبق شرعته فيحسن التطبيق . وعندى أن الإصلاح يجد سبيله بأمور منها :

١ — الإعداد السليم القويم لمدرس الدين فى كل مراحل التعليم من حيث الإلمام التام بالعلوم الدينية ، ومن حيث الفنية التدريسية فى هذا المجال والتصرف المثمر فى التعامل مع المتعلمين وحل مشاكلهم ، ومن حيث التفتح العقلى الذى يؤدى إلى فهم الإسلام وما يدعو إليه فهماً متطوراً يناسب العصر الذى يعيش فيه ؛ فهو لن يتأبى مطلقاً على مسايرة كل عصر وكل تطور ، ومن حيث الالتزام الأمين بروح الدين وجوهره فى كل ما يقول ويفعل ليضرب المثل واقعاً حياً مؤثراً فى المتعلمين على يديه .

---

(١) راجع صفحات ٦١ — ٦٦ .

وإذا كانت اللغة العربية مرتبطة بالدين الإسلامى ارتباطاً وثيقاً لا شك فيه ؛ فليس يعنى هذا — فى رأيى — أن يسند تدريس الدين الإسلامى إلى مدرس اللغة العربية الذى ركز فى إعداده لمهنة التدريس أو ينبغى أن يكون قد ركز على علوم اللغة التى نعرفها — وإن كان لا بد له من دراسة الدين دراسة مناسبة على ما نذكره بعد — اللهم إلا فى حالة الضرورة القصوى حين نفتقد المدرس المتخصص وحين يؤخذ فى حساب إعداد هذا المدرس البديل إلمامه بالدين وأحكامه بما يقدره على مواقف التدريس فى مجاله ؛ لأن المدرس الذى لا يحسن معرفة ما يقوم بتدريسه باقتصاره على معرفة القشور لا يغنى غناءه . ولا يسد حاجات علمية كثيراً ما تعرض له، بل قد يكون سبباً بتصرفاته الجاهلة مع من يعلمهم فى نفورهم من مادته ، وإغفالهم لتعمق أسرارها والوصول إلى جوهرها المرتجى وإن لم تنقصهم الاستعدادات لهذا وذاك . وليس كالدين الإسلامى ما هو فى حاجة ماسة إلى أن يدرس بعمق وإبانة وتطور وفهم عصرى يربطه بالحياة الحاضرة ، ولن يقدر على هذا كله إلا مدرس متخصص فى علوم الدين قد أعد لمهنته إعداداً واعياً متطوراً آخذاً — بطبيعة الحال — بنصيب مناسب من دراسة اللغة العربية على قدم المساواة مع مدرسى المواد الأخرى ؛ حيث اللغة العربية فى مجتمع العرب والمسلمين هى القاسم المشترك بين الجميع على ما وضحناه فى القسم الأول من هذا الكتاب(١) .

٢ — إفساح صدر التنظيم الدراسى أمام المعلم المعد كى يؤدى دوره بإتقان وفاعلية ؛ فلا يضن عليه بحرية التصرف ولا بالزمن المناسب ، ولا يقصر فى الاستجابة لمتطلبات مواقفه التدريسية ، ولا يسمح لأى متعلم أن يمس جانب الدين من قريب أو من بعيد سواء فى مواقف التدريس أو بعيداً عنها . وهو من جانبه لا يدرس علوم الدين نظريات وكلاماً يلقنه وأحكاماً يحفظها دون اعتبار لما تفعل فى النفوس وتؤثر فى السلوك ، بل عليه أن يعنى بتطبيق ما يدرسه

(١) راجع هذا الكتاب صفحات ٦٨ — ٧٣ .

فى نفسه أولا وفى تلاميذه ثانياً ، فيضرب لهم المثل الذى يتابعون ، ويقيم من نفسه الدليل الموجه بلا ثرثرة أو عويل ، ويثبت لهم عملا أن الدين الإسلامى سلوك وتطبيق قبل أن يكون قاعدة وتقنيناً نظرياً ، بل أكثر من هذا يريهم بكل ماهو مقنع أن الإسلام يمس بتشريعاته وسننه كل نواحى الحياة الدنيوية من علم متطور وفن متحضر وأدب فى التعامل بين الناس رفيع ، وخلق اجتماعى راق ، وحياة ناعمة تزخر بمنجزات الصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك . ولا يغفل تبيان الحجة فى الرد على التساؤلات التى قد تضال إذا أهملت إجاباتها أو لم تكن كافية شافية. ولا بأس بأن يقصد قصداً أو استطراداً إلى النقاط التى يتعمد بإثارتها المغرضون تشويه الدين الإسلامى فيبسط الكلام والنقاش حولها بسطاً مناسباً لمستوى تلاميذه بحيث يستبينون به وجه الحق ، ويتمكنون بما فهموا أن يردوا الضال إلى سواء السبيل ، وأن يقفوا فى وجه العابثين محترفى الإفساد والتضليل من شياطين الإنس والجن على السواء ، والأمثلة فى هذا معروفة لدى العالمين ، ومن بينها موضوعات الطلاق وتعدد الزوجات والرق فى الإسلام ، وبراءة الفتوحات الإسلامية من إكراه الناس على الدخول فى الإسلام ، وغير ذلك .

وعلى الجملة نريد مدرس الدين الإسلامى أن يخرج لنا ذلك المواطن المسلم الذى يفخر بإسلامه ويعتز بعقيدته ، ويطبق شعائره عن يقين بأنها جديرة بالتطبيق ، ثم يسهم فى تعمير الحياة الدنيا فى الموقع الذى يكون فيه من وطنه بمنطق من دينه ، ويوحى مما فهم من أسلوبه فى التشريع ، إذ بهذا يضرب المثل للناس أجمعين بأن المسلم الحقيقى فعال لا قوال ، بناء لا هدام ، متطور لا داعية إلى الجمود ، مشارك بأمر من دينه فى صنع الحضارات وإقامة النهضات ، مفتوح العقل ، مبسوط الفكر ، خلاق مبتكر ، عامل جاد لا متواكل مقهور ، وهو فى كل ذلك عابد لربه ، مستجيب لدعوة نبيه ، مثاب مأجور .

٣ – وضع منهج الدين الإسلامى بحيث تترابط فروعه ، وينبنى بعضها على بعض ، ويأخذ أحـــدها من الآخر ، ويعضد كل فرع بقية الفروع لأنها كذلك فى طبيعتها ، ومسايرة تلك الطبيعة خير ما يؤدى إلى نجاح الدراسة . والواقع أن علوم الدين الإسلامى تتفرع فروعاً منها : القرآن الكريم ، والتفسير ، والحديث ، والفقه ، والتوحيد ، والسير ، وغير ذلك ، ولكل من هذه أهداف خاصة ينبغى تحقيقها بدراسته على ما نبينه بعد عند الكلام المفصل عن تدريس تلك الفروع . ولكنها فى النهاية تتجمع لتخدم هدفاً موحداً هو بناء الشخصية المسلمة الملتزمة بأحكام هذا الدين ، المنفذة لتعاليمه ، السالكة طبقاً لهديه وسنته . ولن يلتقى المتعلم أبداً بهذا الهدف ما لم يتعلم فروع الدين تلك مرتبطاً بعضها ببعض كما تقضى به طبيعتها ؛ إذ لا يعقل مطلقاً أن يدرس القرآن الكريم وتفسيره بمعزل عن الفقه مثلا و بهذا كان الأولان مصدر التشريع فى الثانى ، كما لا يعقل أن يدرس الحديث بمنأى عن القرآن الكريم وقد كان الأول شارحاً للثانى ومفصلا لإجماله ، و بالمثل فإن السير الإسلامية شائعة فى كل من القرآن والسنة ومنهما كانت و بنيت ، وموضوعات التوحيد والعقيدة تعتمد اعتماداً قوياً وتتصل اتصالا وثيقاً بما فهم من كتاب الله وحديث رسول الله ، وتنبنى استدلالاتها وما انتهت إليه من فكر على ما ورد فى ذهن العلماء واستنبطوه عندما قرءوا القرآن وتداولوا الحديث بناءً على مبدأ تحرير الإسلام للعقل ، وتحطيمه لجدار الخوف من الجدل والنقاش حول القضايا الإسلامية . وهكذا يقوم الكل على الكل ، ولا يستقيم الواحد بنفسه كياناً متميزاً عن الآخرين .

ومن مستلزمات الترابط بين فروع التربية الدينية فى المنهج الدراسى ألا يخصص وقت للتفسير وآخر للحديث وثالث للفقه وهكذا ، ولكن الدرس الذى يضم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشارحة لها والأحكام الفقهية المستنبطة منها يكون وحدة لا تمنع من دراسة بعض الآيات والأحاديث وحفظ بعضها

بعضها الآخر ، وقد تتصل الآيات والأحاديث بسيرة من السير الإسلامية فتدرس كلها وحدة أخرى ، وقد يكون اتصال الآيات والأحاديث ببعض قضايا العقيدة والتوحيد فتدرس كلها وحدة ثالثة . وقد يتم الارتباط بين الجميع بما يكون وحدة رابعة ، وهكذا . ومعنى ذلك بتوضيح أوضح أن أمر الارتباط بين فروع الدين الإسلامى يأتى بطبيعته من غير تكلف ؛ فليس من اللازم أن تتجمع كل الفروع فى موقف دراسى واحد ، ولكن ليس من المقبول عندنا أن يقوم فرع بنفسه فى الدراسة مفصولا عما يرتبط به ارتباطاً طبيعياً ؛ وبخاصة القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين هما أصل التشريع ومناط أخذ الأحكام والقضايا الدينية .

وليست دعوى الاتصال بين فروع الدين الإسلامى دراسة ومنهجاً بواصلة إلى ما تقوم به الجامعات والدراسات العليا فى هذا الصدد ؛ لأن لها شأناً يختلف عما نركز الكلام عليه هنا متصلا بما قبل الجامعة من المدارس . وليس هنا مجال تفصيل القول فى الدراسة الجامعية وما بعدها ، ولكنا نقول بعامة إن هذه المرحلة المتقدمة من الدراسة هى مرحلة التخصص والتعمق الفلسفى فى علوم الدين التى نحن بصدد الكلام عنها ؛ ولا يمنع فى ظل هذا التخصص أن ينفصل فرع عن فرع ويستقل بالدراسة ، كما لا يمنع أن تتطرق الدراسة الجامعية إلى موضوعات لا مكان لها فى دراسة ما قبل الجامعة كتلك التى تتلق بنظام الحكم فى الإسلام وفلسفته أو التشريع الاقتصادى فى الإسلام ، أو علم الاجتماع الإسلامى ، أو غير ذلك . أما مرحلة ما قبل الجامعة موضوع تركيزنا فنحن نستهدف من دراسة علوم الدين الإسلامى فيها أن نخرج المسلم عقيدة قوية تلتصق التصاقاً عضوياً بشخصيته ، ثم سلوكاً وممارسة عملية لما تقضى به هذه العقيدة ، ولا يهمنا فى هذه المرحلة من الدراسة أن نفلسف له النظريات ، أو أن نفصل مذاهب الخلاف بين العلماء فى مفاهيم أى فرع من فروع الدراسة الدينية .

٤ ــ العناية بإعداد مدرس المواد الأخرى المسلمين إعداداً دينياً مناسباً ضمن خطة إعدادهم لفنيتهم الخاصة ؛ بحيث يخرجون إلى حياة التدريس العملية وقد أضاءت العقيدة الإسلامية بصيرتهم ، ووضعت فى طريقهم الهداية متمثلة فى الالتزام بالخلق الدينى سلوكاً وتطبيقاً ، وإقامة للشعائر ، وتعظيما وتقديساً للإسلام . وبذا يكملون مع مدرس الدين فى المدرسة دائرة الفضيلة الدينية حول المتعلمين قولا وعملا ؛ فلا يجدون فكاكاً من السير على درب تلك الفضيلة ، ويحسن انصهارهم فى بوتقتها ، ونظفر منهم بمن نقصد إليهم من وراء التربية الإسلامية ودراستها فى المدارس العامة كما أسلفنا القول فى ذلك .

ولعل معترضاً يقول : وما شأن من لا يعلمون الدين من المدرسين بمعرفة الدين والإلمام بقضاياه ؟ ونحن ــ مع ما ألحنا إليه من إجابة فى الفقرة السابقة ــ نقول : ألسنا فى مجتمع يدين بالإسلام عنصراً ثقافياً من أهم عناصر الثقافة فيه ؟ . فكيف إذاً يسوغ فى عرف التربية السليمة الداعية إلى التوافق مع المجتمعات وثقافاتها فى بناء المناهج ؛ كيف يسوغ أن نخرج للوطن غرباء عنه فى أهم مقوماته الثقافية وهو الدين ؟. بل إننا لا نغرب فى القول إذا دعونا إلى امتداد رقعة التربية الإسلامية لتكون ضمن مناهج كل ضرب من ضروب المعرفة أيا كان إن كنا بحق نقصد إلى إحسان تربية النشء ونسلك إلى ذلك سبيلاً مستقيما . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن من لا يحسن العلم بالشىء قد يجهل غيره فيه إن تصدى لتعليمه إياه ، بل قد يصده عنه وينفره من الأخذ به . فإذا نحن أهملنا جانب الإعداد الدينى المناسب فى غير مدرسى الدين فقد نحظى منهم بأناس يعارضون بأفكارهم ويشتتون بآرائهم ما يحاول مدرس الدين أن يغرسه فى نفوس المتعلمين ويربيهم عليه، ومن ثم تنكسر دائرة الفضيلة حول المتعلمين فيجدون إلى الضلال طريقاً ، وهذا ما نراه اليوم واقعاً فى مجتمع المسلمين وبين الشباب بخاصة ؛ حيث نجد الإفتاءات المضللة ، والافتئات فى التفسيرات الدينية للقضايا التى تعرض للجميع من

حيث إن الدين عنصر ثقافى فى مجتمع المسلمين . والنتيجة فى نهاية الأمر وبال على المتعلمين يظهر فى سلوكهم الشاذ وتصرفاتهم المضطربة الخرقاء .

٥ — العناية بمتابعة المعلم والمتعلم فى ظل ما بيناه فى النقاط الأربعة السابقة ؛ إذ لا يكفى أن يعد المعلم ويوضع له المنهج والخطة ، ولكن لا بد من متابعة التنفيذ ، وتقويم الإنجاز فى إطار ما استهدف من أهداف ؛ ذلك لأن التقويم جزء لا يتجزأ من أى موقف تربوى وفى أى منهج دارسى ؛ إذا انفصل عنه تاهت معالمه ، وفقد صداه .

ومن هنا يتوهم المتعلم فى منهج الدين لا حفظاً لقواعده واستظهاراً لأسسه وأصوله ، ولكن فهماً وتطبيقاً وسلوكاً . ويقوم المعلم لا فى إحسان ما يلقى من معلومات ويعرض من موضوعات دينية فحسب ، ولكن يضم إلى ذلك تقويمه من حيث الالتزام الدينى قولا وعملا لمبادىء الإسلام التى تمتد فتشمل النواحى الدنيوية كما تشمل النواحى الروحية . بل إن التقويم فى منهج الدين الإسلامى لا يقتصر على المعلم والمتعلم كليهما ، بل يتضمن أيضاً الأثر الذى يحدثه المتعلم بتوجيه المعلم فى المجتمع الذى يعيش فيه . فهل بفعل ما علمت المدرسة من أمور الدين — شاع فى الطلاب مثلا أن الحق أحق أن يتبع وأن النظم واللوائح وضعت لتنفذ ؛ فلا إلحاح إذاً فى شىء يقف القانون دون تنفيذه ، ولا غش ولا خداع ولا تفريط فى واجب ، وهلم جرا . وهل — بما ربت المدرسة تربية دينية — تخلق الناس حين يتعامل بعضهم مع بعض بالفضائل التى يقرها الإسلام والتى أشرنا إلى كثير منها فيما سبق ؛ هل تغيرت مثلا صفات كريهة لا يعرفها الإسلام وكانت شائعة بين المتعلمين من موظفى الدولة كتقاضى الرشوة ، وعدم المبالاة فى أداء الأعمال ، وتأخير قضاء المصالح المنوطة بهم والداخلة ضمن مسئولياتهم قصداً إلى تحقيق أهداف غير شريفة أو مقبولة ؟ . وهكذا .

وعلى المسئولين عن التربية والمناهج التربوية أن يضعوا القواعد المنظمة

والمعايير الصحيحة التى على أساسها يقوم كل من المعلم والمتعلم وكذلك المجتمع بأسره وبكل طوائفه وقطاعاته فى ظل الاعتبارات الدينية التى ينبغى أن تأتى وليدة التربية الدينية ودارستها فى المناهج المدرسية والتى أسلفنا فيها القول مع التركيز على التطبيقات السلوكية .

الصلة الوثيقة بين ما يستهدفه تعليم الدين الإسلامى وما يستهدفه التعليم بعامة

من ثنايا ما أسلفنا من القول فى وظائف الدين الإسلامى يتبين لنا أن هذا الدين يحيط بكل الجوانب التى يحتاج إليها الإنسان فى حياته الدنيا بجانب تلك التى تتصل بالحياة الآخرة . ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن كل دراسة فى أى فرع من فروع المعرفة هى ضرب من امتثال أمر الله تعالى حين دعا فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى التعلم والتعليم كما وضحنا سابقاً ، وكما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . ويقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . . . . ومن ثم فدراسة اللغة العربية وآدابها مثلا طلب للعلم ، ودراسة اللغات الأجنبية طلب للعلم ، ودراسة المواد الاجتماعية طلب للعلم ، ودراسة العلوم البحتة والرياضيات طلب للعلم . . . وهكذا .

وقديماً اشتغل علماء المسلمين بدراسة الطب والهندسة والعلوم والرياضيات والفلسفة وغير ذلك من العلوم ، ووضعوا فى كل منها الأصول والقواعد والمفاهيم الأساسية التى بنى عليها المحدثون وكانت لهم المنارة، وعدت بحق بداية المنشأ لهذا العلم أو ذاك . وما الخوارزمى فى الجبر والرياضيات ، وابن سينا فى الفلسفة والطب ، وابن رشد فى الفلسفة وسيبويه وابن جنى فى نحو العربية وأبو بكر الرازى وابن الهيثم وغير هؤلاء كثير إلا أمثلة يعرفها جميع المشتغلين بالعلوم كل

فى ميدانه . ولم يكن هؤلاء العلماء بخارجين عن الإسلام فيما كرسوا له حياتهم . ولم ينكر عليهم مسلم اشتغالهم بتلك العلوم التى تعد فى العرف الجارى دنيوية ، بل كانوا على العكس من ذلك على رأس من خدموا الإسلام وفكرته الحقة ، ودعوته الصادقة إلى طلب العلم خدمة صادقة جليلة شهد بها كل المسلمين وغير المسلمين .

ومن هنا نقول بكل فخر واطمئنان : إن تعليم الدين الإسلامى هو فى حقيقة أمره كشف لما خفى عن بعض الناس من أن الدين الإسلامى يستهدف تنظيم الحياة الدنيا بما يتضمن تعليم الإنسان وتهذيبه وتثقيفه فى كل ما يحتاج إليه المجتمع ، كما هو من الجانب الآخرة بما ينظمه من أمر اتصال الإنسان بالله . وبمعنى واضح فإن أهداف التعليم بعامة هى جزء مما استهدفه الإسلام ؛ بحيث إذا تقاعس عنه جميع المسلمين فى المجتمع فهم آثمون مستوجبون لعقاب الله ، لأنهم تركوا فرضاً فرض عليهم بنص الحديث الشريف : «طلب العلم العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ، ولم يحققوا هدفاً أراده الإسلام من أتباعه. وإذاً فالعلاقة وثيقة جداً وواضحة بين ما يستهدفه تعليم الدين الإسلامى وما يستهدفه التعليم بعامة ، فهما متداخلان مداخلة لا شك فيها بحيث إذا ذهبت تفصل واحداً عن الآخر فصمته وهددت كيانه .

ولا يقال إن بعض ما يستهدف من التعليم فى بعض البلاد الأجنبية هو خارج عن نطاق الدين الإسلامى ودعوته بالقطع كتعليم الإلحاد فى الاتحاد السوفيتى مثلا والبلاد الدائرة فى فلكه ، فكيف بهذا المنطق يلتقى هدف تعليم الدين الإسلامى بهدف التعليم العام ؛ والجواب عن هذا التساؤل هو أننا حين نتحدث عن أهداف التعليم بعامة وصلتها بأهداف تعليم الدين الإسلامى فإنما نتحدث عن ذلك فى مجتمع إسلامى هو المجتمع الذى نعيش فيه ونرتبط به ، فلا يعنينا خروج الخارجين من غير المسلمين فى مجتمعاتهم وبعدهم بأهداف التعليم عندهم عما استهدفه الإسلام فى دعوته إلى التعليم. وإلا فهل تستطيع أن

تجبر الصينيين مثلا على عدم استساغتهم لشربة أعشاش الطيور لأنك لا تستسيغها ؟ ! ! إنهم وغيرهم فى ظـــل ما يدينون به ويتعودون يتصرفون ويتعلمون ، ونحن المسلمين فى ظل ما ندين به ، ونتعود نتصرف ونتعلم كذلك ، والمناهج التربوية دائماً تتشكل بشكل المجتمع الذى تعيش له وفيه .

obeikandl.com